د. علي كريم آل عمار

النزول إلى أعلى

سقوط العروش

رواية

دار نينوى
للدراسات والنشر والتوزيع

HAZEM MASSAOD
HM
E-Books

النزول إلى أعلى
تأليف علي كريم آل عمار

تحويل وتنسيق
د/ حازم مسعود
للمزيد من كتبي على
https://t.me/hazem_massaod_kindle_books

النزول إلى أعلى
سقوط العروش
مقدمة تعريفية:
إنها رواية تنطلق من صميم ما يحدث وما حدث وما سيحدث من أحداث متتالية، أحداث ينشغل العالم بها اليوم, وهي موضوعات ترتبط كثيراً بطرق كشف الأمور المتعلقة بالظلم الدنيوي والكوني لبقاع الأرض كافة. رواية تحاول أن تستجمع شخوصها وأحداثها برؤية جديدة, تتحدث عن محورين هما قوى الخير والشر، وعن حضارتين, وفي أبعاد مكانية مختلفة جغرافياً, إحداهما تقع في غرب العالم والأخرى في الشرق منه, وقد بغت إحداها على الأخرى. في هذه الرواية أكثر من شخصية محورية تنطلق لتكوّن فيما بينها مجموعة متراكمة من الشخصيات المحورية الرئيسة مع الشخصيات الأخرى والثانوية, وتتناغم فيما بينها ضمن البناء الدرامي والملحمي، ربما ستكون أو ستمثل للبعض شخصيات خيالية، وربما هي شخصيات موجودة فعلاً في هذا الكون وينتظر منها أن تظهر, شخصيات تحاول جاهدة أن تجمع بين اليقين والخيال.
شخصيات هذه الرواية نمت وترعرعت بهواجسها وعاطفتها بين الأساطير وميثولوجيا الكتب المقدسة, أو تحت أنظار الآلهة, أو ربما أمام وتحت أنظار الآخرين, ويمكننا أن نقول, بأن أكثر ما يمكن أن توصف به هذه الشخصيات سواء الرئيسة منها أو الثانوية, بأنها شخصيات لا تستطيع أن تستجمع أفكارها وهواجسها في مكان محدد وزمن محدد كذلك، فهي شخصيات معنوية دائمة التجوال ما بين الوجود الروحي والوجود المادي، وما بين الحقائق والأساطير، وهي كذا في حالة تناغم وتفاهم مع ما سيحدث على الرغم من الألم الذي يعتريها، ومع مجموعة من الأماكن والأزمنة. ذلك الشخص أو روح الأنا, الذي يهجر الحياة «حيناً»، ويفرح ويكابد «حيناً» آخر، وينمو ويكبر بين أماكن سيئة وأخرى ربما تكون أو ستكون أفضل, يحاول أن يمضي في حياته بقناعة كاملة ودون أدنى شك أو ريبة, وبقدر عظيم من الإيمان، فهو مؤمن بما يسمى بالحتمية التاريخية للوصول إلى الهدف الأسمى وتحقيق مبتغاه.
الرواية بجزئها الأول، تجسدت فيها أحداث مختلفة وشخوص كثيرة، وتعددت فيها الأماكن والأزمنة, كما تنوعت فيها المآرب والنوايا, فربما كان دافع ذلك, أنها كانت تستجمع أسرارها من أسرى الأفكار والجوارح التي تراكمت في ذاكرتهم المتوهجة, وكأنها شعلة سيبرانية متقدة بين

افتراضات اللا شيء والشيء, وبين الملموس والمحسوس, أو بين تلك الأفكار التي ستظهرها لاحقاً الأحداث المتسارعة بل تستحضرها. بطلها شخص موضوعي يحاول أن يرفض واقع الظلم بطموح أكثر إشراقاً, متنقلاً ما بين مجموعة من الأفكار السوداوية والأفكار التفاؤلية. وهو شخص خيالي حين ينتقل بالقارئ فيما بين جغرافية المكان صعوداً ونزولاً كأنه الرجل الأفعوان, وبين حاجاته البيولوجية التي كادت تنهار أو انهار بعضها فعلاً وغدت الأخرى في طريقها إلى الانهيار, وهي التي كانت تغوص في حفر غابرة، لكن النهاية ستتأرجح بينهما، بين أن تكون الحقيقة ساطعة حين يهبط عليها من الأعلى بالحقّ والخير إلى أعلى سطوح الحضارة القاتلة لغيرها, لينزل معها الأمل بعد أن ملأها المتحضرون بكثير من الألم والدم، وآن لها أن تعود مرة أخرى, كما الإنسان الذي تتجاذبه أمواج ذلك اليم العظيم بين شطرين من الخيال والديجور العاتم.

توطئة:

إنها محاكاة عالم الحقيقة بمنظار الماضي السحيق, حين يخرج صابر1 متنقلاً من مخدعه ليجد له أربعين شبيهاً، فيتساءل في ذاته المتعبة، لماذا؟

ربما جاء هذا التساؤل ليتزامن مع رمز التطهير والنقاء من تلك الآثام والخطايا التي فعلها سحرة الظلم والظلام في الأرض المقدسة ولا يزالون يفعلونها, كما جاء في محكم كتابه العزيز: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾. أو كما جاء في العلامة الثانية من الانهيار الموعود: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ﴾.

كما ارتبط هذا الرقم بالتطهير -تطهير العقل - كما هو الطوفان ضمن استعراض 40 يوماً.

كما جاء في تشاليا، فقد كانت أربعون شلوقا أو دوهاس، وهو «مصدر صوتي لمقاطع صوتية».

كان إنكي من آلهة سومر، وهو إله الذكاء والحكمة والإبداع، وربّ المياه الذي يتدفق من كتفيه في النقوش السومرية كتمثيل لنهري دجلة والفرات العظيمين, حيث انقسم اسمه إلى قسمين En وتعني السيادة، وKi وتعني سيد الأرض في الميثولوجيا الأكدية والبابلية.

انتشرت عبادته في حوض النهرين الخالد حتى الشام، إنه ارتباط مثير للرقم 40 في «ايديوغراف» الإله إنكي بالرقم المقدس، كما جاء في السفر المقدس2. ففي حكاية الطوفان تمطر 40 يوماً منذ أن خرج المرسل العظيم في رحلته المثيرة، قليلون من أعاروا لذلك الأمر الذي حدث أهمية.

- في سفر العدد (13/25): يعود جواسيس موسى من أرض كنعان بعد 40 يوماً.
- في سفر العدد (32/13): تاه اليهود في البرية 40 سنة قبل أن يخرجهم الربّ منها ويخلصهم.
- حكَمَ معظم ملوك اليهود 40 سنة, ومنهم: الي, داؤود، شاؤول, سليمان.

وحين يلتقي بهم في لحظة من اللازمن...! سيجد منهم الصالح كما هو منهم, وسيجد الطالح أيضاً.

هي رحلة بين الشقاء والنماء، بين الخير والشر، عبر أزمان وأكوان وعبر أراضٍ وجغرافيا وميثولوجيا، قد تجده تارة في الشر ق الأدنى وتارة أخرى في الغرب الأمريكي، وحين خرج كانت قد مضت عقود كثيرة، كانت رحلة أريد لها أن تكون بداية لنهاية عصر عاتم مغرق في الظلام.

محاور هذه الرواية متعددة، ينشط في كل محور عدد من الشخصيات, وبعض الشخصيات يكون بجانب الخير، وبعضها يجلب الشرّ والدمار, إنه الصراع الخفي والمستدام بينهما. ولكن في النهاية لابد من حسم ولابد من تحقق للمأمول. شخوص هذه الرواية ربما يكونون في مواقع كثيرة سيجدها

المرء مغيبة إلى حين, أو هكذا أريد لها أن تكون، وقد تكون غامضة أو ممهدة لاقتناص الفرص، كما يرمي بعضها إلى أبعد من ذلك لتمهد لشيء أعظم.
المكان: ساحل جونيه - بيروت - لبنان
الزمان: الأعوام من ٢٠٢٠ - ٢٠٨٠
أرض الحدث: «ممالك ميزوپوتاميا, مملكة كاثاي، بلاد العم سام, مملكة الفرنجة, بلاد الأناضول»

1 - بطل الرواية.
2 - سفر مزامير النبي داود (ع).

الفصل الأول

(١)

النبوءة الحلم.......

من وجهه النظر الفلكية، كيف يمضي ذلك الشيء نحو الجمع بين طرفي الحديث بين الشرق والغرب، وهو لا يزال في المكان لم يبرحه؟

دمشق وبيروت كانتا من حواضر الشام الجميلة، وبيروت كانت من أولى محطاته, هو المحطم من الداخل والمحبط في أحيان كثيرة, وقد جاء إليها ليكمل دارسته المتقدمة في علوم الطبّ البيولوجي في الجامعة الأمريكية فيها، ليتمكن هو وآخرون من فريقه البحثي من الحصول على ضالتهم البحثية من خلال العثور على تلك المصول القاتلة للفيروسات المميتة، ولكن حين كان ذاك الأمر مفرحاً له بقدر ما، كان هناك بالمقابل آخرون عبر الأطلنطي في تلك الجامعة يبحثون في الاختراع ذاته، ولكن من زاوية أخرى.

حينما فكر في الهجرة من بلاده من مدينته الواقعة وسط بلاد ما بين النهرين مملكة ميزوبوتاميا، تلك المدينة الغافية على واحدة من أقدم حواضر الأرض القديمة، قال له أصدقاؤه: إلى أين الرحيل؟ لم يصغِ أو يردّ على من سأل، فقد قرر أن يذهب دون رجعة أو دون خوف أو وجل، إنه واحد من أولئك الكثيرين الذين هجروا تلك الأرض التي كانت مهد الجذور الأولى، وحين هجروها لم يكن لديهم كثير من الفرص المتاحة خارجها. لكن كانت الهجرة بالنسبة إليه فرصة لحياة ثانية ليلتقي بآخرين، مما مكنه من عودة الروح إليه، نعم فقد كان بعضهم دليل روحه الهائمة التائهة.

في لحظة من الزمن يتوقف عقله عن الوثوق بما يعطيه من مؤشرات أو إيعازات عصبية, وفي إحدى تلك الليالي كتب عليه أن يكون قريباً من ساحل الهموم، لا لم يكن قريباً فحسب، بل وجد نفسه ولأكثر من مرة في أكثر من مكان, ضالاً يبحث عن ضالته المفقودة، فقد كانت ليلته مقمرة رغم الظلام الدامس........

في ليلة أمس في يوم الجمعة الموافق العشرين من شهر نيسان عام 2020، وجدت نفسي أسير على شاطئ البحر في جونيه، خلف جمع من الناس تقطعت بهم السبل, يتجاذبون أطراف الحديث في ظلمة الليل ويتساءلون فيما بينهم هل انتهى الليل؟ أم لا يزال قائماً؟، فغلب عليّ التعب، كما غلبني النعاس.

نظرت إلى السماء، وفيما أنا كذلك، وجدت نفسي مضطراً لحملها نحو شاطئ البحر المترامي كمن يبحث عن شيء مفقود كعادته، كما أني وجدت نفسي في نزهة مجانية، أداعب ذرات رمال هذا الشاطئ الجميل وأحجاره مداعبات صبيانية، وبينما أنظر إلى تلك الأضواء الخافتة التي تتراقص فوق الماء وتنعكس بصورة قرمزية كأنها حزمة من اللآلئ، كان لسان حالي يقول: مازلت أطوي أقدامي نحو لا شيء، إلا أني أرغب بالارتماء في أحضان دافئة قد تكون أحضاناً بريئة, كأحضان أمي، أو أحضان تلك الأرض البعيدة أرض الحضارات الغابرة3 أو حتى جوف حفرة ما، ولكني في الوقت نفسه أشعر بالخوف والذعر مما اعتراني، كما راودتني أفكار من الهلوسة المتراقصة على خرير الماء الرقراق.

حاولت جاهداً أن أستجمع ما تبقى من قوايّ الخائرة لأرجع إلى مكان ما، ربما يكون ذلك المكان الصغير والجميل في عيون ساكنيه، حيث أقيم، ولكن أين ذلك المكان مني؟ فلم أعد أتذكر السبيل إليه، أين مسكني؟ تساءل في نفسه إلى حدّ التوجس، فهو يقف على شفا الخوف والهلع.

ربما عميت لديّ الأفكار، بل تزاحمت في رأسي وكأنها شريط مبعثر من الصور المتداخلة، فقد حاولت جاهداً أن أتذكر بعضاً من تلك الأماكن التي كنت أتردد إليها ولكن دون جدوى...!!!
فكرت ملياً أن أقبض على روحي وألقي بها خلسة في هذا اليم، وإذا بي أجد الحكايات القديمة تراودني فلم تعد ذاكرتي وذاكرة الدنيا تهمني بشيء فقد اعتراني فجأة...!! شعور غريب، نعم، فقد شعرت بأنني للحظة لسبب بعيد لم يغب أبداً عن ذاكرتي المتقدة بالآلام, أن ذاكرتي التي لم تفارق تلك اللحظات عادت, لأتذكر بأنني لم أكن ذلك الفارس الهمام الذي يستطيع أن ينقذ روحاً فاضت في ذلك اليم البعيد..!!
لم أكن أكترث لنفسي كثيراً، لم أكن أشعر بالمودة نحوها، بل كنت قاسياً مع نفسي، هل كنت فعلاً متمكناً أو قادراً على فعل ذلك والمضي دون أن أفكر بما سيكون، لإنقاذ شخص ما من الغرق. لقد سلمت نفسي للأفكار الأليمة التي كثيراً ما تراودني هذه الأيام, وتعيد وسوستها حين عادت بي ذاكرة الصور المعتمة إلى ظهور تلك المآسي، فحين كان يبلغ عقداً وبضع سنوات من ربيع عمره4, عادت بي الأفكار إلى ذلك الغروب المضطرب والمفاجئ لي, عادت إلى تلك الليلة الظلماء التي انطلقت منها وما أزال أحبو إلى وشائج من السواد والعجز, وكيف تحولت بقية الأيام بعدها إلى ليال حالكة السواد, وكيف تحوّل الشَّعر إلى أبيض ناصع كثّ...
كانت هذه اللحظات على الرغم من قسوتها كمن ذبح بغير سكين، تمثل لي برهاناً لحياة أعيشها, وتساؤلات أبرز ما فيها، هل مازلت حياً أرزق؟ والحال هذه أ لا يزال لي فيها شريان ينبض ويسقي بها فؤادي المتعب, إنها اللحظة أو إنها لحظة ما كانت فارقة، مثلت لي عودة صورية, لأشياء بدت لي وكأنها أشباح، ولكن لابد أن أكون عقلانياً حين أتذكرها.
صور بدت لي وكأنها طبقات منسية من الصور القديمة تتراقص أو تذبح، فالأمر سيان عندي, نعم فهي تبدو كذلك أمامي بذكرياتها المؤلمة, كما لو أنني تصورت ذلك الأمر, وكأنني أحيا بلا حياة, رغم عدّاد السنين الذي يمضي دون هوادة, ولا يتوقف إلا عند بؤس الذكريات، نظرت مرة أخرى، ربما كانت هذه هي المرة الثانية أو الثالثة, فقد أضحيت لا أعرف الحقيقة فعلاً، وربما كانت المرة الرابعة أو أكثر، وأنا ما زلت أنظر إلى نفسي وكيف أبدو كأنني أسدد ديناً في رقبتي.
فالذكريات المؤلمة تلك بدت وكأنها مصباح بدأ وميضه يخفت في ظلمة بدت تتسع بمرور الأيام، ربما أنقذتني بل انتشلتني مما أنا فيه من بؤس وعجز واضح عليّ. وفيما أنا كذلك، كانت لي رغبة في تتبع تلك الذكريات, وما إن كنت أتهادى ببطء، إلا وجدت نفسي أشعر بقليل من الأوهام والأحلام المزيفة مقابل تلك الحقائق الأليمة وثمة تساؤل يراودني كثيراً، هل كنت على حق دائماً؟ واجتاحتني رغبة جامحة ومتقدة لمعرفة من أكون وأين أنا الآن؟
وأنا كذلك إذ بي أرتطم بجسدي المثقل في شيء ما يبدو كأنه شجرة عملاقة, لم أحس بها لأول وهلة, إلا من خلال وريقات تساقطت منها, ومن خلال حفيف بعض سيقانها التالفة، بدت لي وصارت تبدو وكأنها فارس مثخن بدمائه يحاول جاهداً أن يدافع عن نفسه وهو يتصارع مع صرصر الرياح العاتية، نعم لقد وجدت نفسي تحت ظلها, أرتمي لأستكين إليها, وعلى الرغم من أنني مازلت في منتصف الوعي الآن، إلا أني بدأت أشعر وكأنني قد أمسيت في منتصف الحلم، أو في منتصف الليل الكسير, وإذا بي كذلك انتابتني حالة من عدم الاتزان وكأنها حالة سكر من دون شرب خمر أو أي مسكر، لابد أني عانيت الكثير, وربما آلمت نفسي مراراً ومازلت دون أن أعرف لذلك سبباً وجيهاً، وهل لي من الاستطاعة لمعرفة ذلك، لا أعتقد فالأمر يبدو لي كأنه ليل

طويل لا ينقضي، هل كُتب عليّ أن أبقى هكذا وبتلك الهيئة واليقظة المتقدة بوهج الماضي، لكنني في حقيقة الأمر لم أعد أتذكر التاريخ، ولا اليوم الذي أنا فيه الآن، وكم يوافق من الأيام، وفي أي شهر، وفي أي سنة!!!

فجأة أخذت أداعب تلك الوريقات المتساقطة في خريف ليل قائظ, وإذا بها تترنح، أو تبدو لي كأنها كذلك، فإذا بها ومجموعة من الأضواء الخافتة تتراءى من بعيد وهي تمضي مسرعة نحوي، نعم وكأنها سرية من القوارب أو السفن قادمة نحوي, وفجأة وإذا بأصوات تزمجر من حولي كأنها زمجَرَة لمجموعة من الفهود المفترسة تنهش في نَحْري, شعرت وكأنني أرتفع للحظة وأنخفض عن الأرض دون أن أسقط، وإذا بي أمام عملاق كبير بدا وكأنه يناطح السحب، وفيما أنا كذلك بدا لي وكأنني بدأت الصعود في غابة من الغيوم لأجد أنني أرى الأرض بصعوبة من تحتي وهي تبوح بأسرارها، وكذا الأشجار بغاباتها المتراصة بحيث لم يمضِ وقت طويل حتى بدت وكأنها لوحة صغيرة. وفيما أنا كذلك فإذا بي أجد نفسي فجأة داخل شيء هائل كأنه مركبة حديدية كما هي أبولو5, تمخر عباب السماء لتدخل بي فيما يبدو أنها شجرة عملاقة كأنها ناطحة سحاب مؤلفة من طوابق متعددة يصل ارتفاعها إلى مئات الأمتار, أولج في وسطها وإذ بي أسير في طريق عريض ربما يكون بعرض مئة متر أو يزيد, أهي مغارة أم ممر أم نفق علوي؟ يبدو كأنها مدينة متعددة الطوابق من عجائب العالم الجديدة، ربما كانت تعمل بالطاقة فوق النووية إن وجد مثل هذا الاختراع, يا إلهي..!! ماذا تكون أو يكون، ربما هي حفرة حفرها عشاق من زمن آخر.!! وجدت نفسي أجثو على ركبتيّ داخل الكائن المتوحش أو (الشجرة) العملاقة، بدا لي وكأنني في قبر، كما بدا لي وكأن أحدهم يمسكني بشدة وبقوة مغناطيسية هائلة، ليدخلني في جوف أعمق وأعمق, نظرت فإذا بي أرى هياكل عملاقة، يبدو أنها هياكل لأشخاص... لا أعتقد,،،، تلعثم اللسان... توقفت الحواس.. يا إلهي!!؟

فقد كان فيها كائنات لم يسبق لي أن رأيتها في حياتي, ربما هي كائنات وربما لا, حاولت الاقتراب منها أكثر وأكثر، ولكني لا أعرف هذه الكائنات من قبل، نعم لا أعرفها ولم أشاهدها حتى في أفلام الخيال العلمي من قبل, ربما هم أناس آخرون من عالم آخر!!

فجأة عادت بي الأفكار وكأنني سلمت نفسي للأمر الواقع، كما لم أعد راغباً في التفكير، فأنا كثير ما كنت ودوماً شخصاً هادئ الطبع, فيما أنا عليه الآن فقد استسلمت كلياً للرعب والخوف, ولم أعد أحسّ بأطرافي فقد غدت كذكرياتي مجرد كوابيس أو وشوشة صورية مغيبة.

وجدت نفسي وأنا أدرك ذلك الأمر جلياً، فقد راقبت المكان بدقة، فيما مضى من الوقت الذي توقف عندي، هل كنت داخل هذا الجوف العميق حقاً؟ ولكن لبرهة تذكرت أني كنت أحاول أو حاولت أن أنزل إلى أعلى قمة هذه الشجرة من ذلك الكائن الحديدي المخيف..!!

ولكن بينما أنا كذلك أمضي وقتاً من الزمن اللا أرضي، شعرت وكأنني أرى نفسي فيها، وهي تتهادى ببطء، ثم ما تلبث أن تسير بسرعة متناهية، وأضحيت ما بين ارتطام وسقوط حر، فتارة أسقط إلى أسفل وتارة أخرى أرفع إلى أعلى دون ثبات يذكر, إلى أن استقر بي الحال أخيراً في بؤرة من ممرات ضيقة وكأنها تشقّ طريقها في غابة كثيفة من السيقان، وبت أرتقب بذعر واضح، خيل لي حدوث شيء عظيم وهائل, شيء ما، وإذا بالصور تتكرر وكأنها تظهر بالثواني بل بوقت أقل من ذلك...!!

بدأت تتسارع الصور والأصوات وكأنها مهرجان في هذا الظلام شديد العتمة,

ومن بعيد شاهدت «ضوءاً» خافتاً, يا للهول، فقد بدا لي وكأنه أرخبيل أو خليج من المراكب الشراعية التي تجوب المكان، بل ربما يكون أبعد مما يكون أو مما أتصور.
وأنا هكذا أضحيت كما يبدو لي أني ما زلت أجوب في هذا الكائن الحديدي وهو ينقلني ويقذف بي بسرعة متناهية وكأنني راقص سيرك محترف يتدلى بجسده على الحبال, فإذا بي أخيراً أسقط على أرض جرداء قاسية الحرارة تبدو وكأنها بلورة فضية...!!
بينما أنا هكذا مذهول وواقف بين مجموعة من كائنات تتكلم معي بعيونها, لا أفواه لها، قلت في نفسي: من هؤلاء، هل هم بشر أم لا؟
هل هم من سكان الأرض التي أعرف؟؟؟ أم لا؟
عدت بعيني, أنظر حولي وأتساءل من جديد: من هؤلاء؟
أحدهم بدا وكأنه يتكلم معي بعين واحدة دون الأخرى..!!
معدلاً من وضعه ومشيته رواحاً ومجيئاً، ثم توقف، بدأ كلامه قائلاً لي: أهو أنت.... برهة... ثم صمت...!!
لقد نطق باسمي يا إلهي!!!
قلت في نفسي قبل أن أدرك أن لساني قد انزوى في جوفي، وبرجفة جسدية وبأسنان مصطك عليها, نعم أنا صابر......
وبعد تردد وهلع واضح, وأنت من تكون؟ أنا رمزي.... ألا تعرفني؟
ألم تكن معي، ألم نكن معاً في لوحة واحدة, كررها مرة ثانية، حين كنا ندرس على مقاعد الدراسة في تلك المدينة البعيدة6, ألم تكن ترافقني في تلك الرحلة الممتعة, لقد كنت معي كذلك في ذات العربة الحديدية النفاثة.
حاولت أن أستجمع قوايّ، وأجيبه، بل كدت أن أقول له كذباً إني لا أعرفه, فهل من الأفضل إذا قلت له إني أعرفك أو التقيت بك في وقت ما.....
ولكني مع هذا التأكد, لم أكن واثقاً جداً من ذلك الرابط الفكري، ربما كان لي صديق اسمه رمزي وهو الذي درس معي على مقاعد الدراسة الابتدائية أو الثانوية, في تلك الأيام الخوالي, وربما في تلك المدينة الغافية على نهر الفرات العظيم، ولكن يبدو أن ملامحه قد تغيرت كلياً مثلما تتغير ملامحنا, لم أعد أتذكره، ربما هو وربما لا... لا أتذكره حقاً..!!
بل أنا متيقن بالرغم مما يعتريني من الخوف والتعب، أني لم أستطع أن أصدق ما أقول أو أتخيل أو ربما حتى ما يقوله هو, أو ما يدعيه, ولكني شعرت لبرهة أني قد أنست بهذا القادم، مهما كان أو يكون، ومن أين أتى؟ لم أعد أفكر في هذا الأمر وعلى أقل تقدير الآن فقط، ربما يكون هو نفسه وقد وجد سبباً في التخلص من هذه المشكلة التي وقع فيها مثلي دون أن أدري, أو ربما لم يكن سوى شبح لكائن ما سوف يتلاشى أمام عينيّ.. أهو حيّ؟ أم لا؟ لا أعرف؟
فجأة، وإذا به قد اختفى بعد تلك المعاينة اللطيفة والسريعة، حيث لم أعد أراه لاحقاً طوال رحلتي هذه، تساءلت في نفسي, أين ذهب؟ ربما وجوده كان ينعمني ببعض السلام والطمأنينة.
لم يعد موجوداً، فما السبب الذي جعله يظهر ثم يختفي بعدها؟ لم أره إطلاقاً؟
ساورتني كثير من الشكوك أين كان كل هذه الفترة؟ وقد مضى على تخرجي من الدراسة الأولية ما يقارب الثلاثين عاماً؟

ومن أين أتى، وإلى أين رحل الآن؟ أم أنه لا يزال يقبع في مكان ما داخل هذه العربة الغريبة، أو يختفي عن بصري في مكان آخر؟
لست أفهم؟
من الذي أوحى له أن يكون معي هنا؟
بقيت أتساءل في نفسي كيف عرف اسمي؟ وشكلي؟ إنه يتكلم عن حقائق، وأمور حدثت معي، يا للعجب!!
تكلمت كثيراً مع نفسي، وتساءلت العديد من الأسئلة التي بقيت دون جواب، كما استحضرت مجموعة أسئلة لأسأله إياها كي أجد تفسيرات للأمور المحيرة التي تحدث معي الآن، وقررت في نفسي أن أثيرها معه حين يحضر مرة أخرى, فقد أثار فيّ الكثير من علامات الاستفهام، وجعلني أشعر بالحيرة.
حينها سأقول له: أنت الذي تدعى رمزي, إذا كنت رمزي ويبدو اسمك كما قلت, وتقول إننا زملاء دراسة, رجاءً أجبني من أي منطقة قدمنا وإلى أين نحن ذاهبون, أرجوك لم يسعفني للحظة تذكري لك؟
أرجوك أجبني، من أين جئت؟
وجدت نفسي مطالباً بالإجابة عن تلك التساؤلات أكثر من أي وقت مضى، ولكن يبدو أنه لن يأتي إلى هنا مرة ثانية, خيل لي أنه قد جاء وسألني لماذا تمنح نفسك ثقة رؤيتي مرة أخرى؟
ولكن بدلاً من ذلك وبعد يأس من رؤيته، نظرت إليّ إحداهن ممن كن يتواجدن في المركبة ذاتها, نظرت بقسوة وبصرامة واضحة على وجنتيها, بدا وكأن الكلام أخذ ينزف من عينها اليمنى المنتفخة دون الأخرى نزفاً شديداً وهي تتأهب، كان ذلك واضحاً وجلياً لي، بالرغم من عتمة الظلام وديجور السماء.

3 - حضارة بابل العظيمة ومثلها بابل المدينة القديمة لبلاد ما بين النهرين، وهي واحدة من أهم مدن وادي الرافدين. اكتسبت هذه المدينة أوج ازدهارها في الألفية الثالثة قبل الميلاد عندما جعلها حمورابي عاصمة مملكة بابل حينها، إذ هزم خصومه في المنطقة، وأسس مجتمعاً قام على حكم القانون، ومهارة علماء الفلك والرياضيات، وأصبحت بلاد ما بين النهرين كلها تحت سيطرته بحلول نهاية حُكمه لأول مرة منذ إمبراطورية سرجون قبل ٥٠٠ عام من عهده.
4 - شخص ما، بحسب خيال المؤلف.
5 - من أوائل المركبات الفضائية التي وصلت إلى القمر عام ١٩٦٩، وتسمى أيضاً المركبة القمرية، وأبولو اسم إله إغريقي.
6 - يقصد بها بابل.

حضرة الأنا.............
مضت ساعات حين خرج صابر من مسكنه وصعد إلى تلك المركبة الغريبة عبر نفق في شجرة عملاقة حيث التقى فيها بشخص يبدو له أنه يعرفه يدعي أنه رمزي الزميل والصديق، كما التقى أشخاصاً آخرين بدا له أنه يعرفهم أيضاً بسيماهم وكأنهم أشخاص قريبون منه شكلاً, ماذا كان يجول في مخيلته، لا يدري، ولكن ربما ستكون الساعات التالية كفيلة بالإجابة عما يدور من جدال بسبب الأنا المتضادة.
مضت ساعات عديدة تقارب اليوم أو ربما أكثر من ذلك اللا زمن، حتى عادت ذاكرتي حين بدأت بالتذكر، فبادرني أحدهم مرة أخرى يسألني: من أنت؟
وقد ربط وجهه المتبرم وشعره المجعد بحدة واضحة على محياه، وكأنه ربطه بشاخص قريب منه، قال لي بصوت واضح أجش:
أنا ضميرك الحي.....!!!!
ترافقت تلك الكلمات بموجات تصعقني كهربائياً، وبدت الأرض التي أحيا فوقها هي الأخرى قد تصدعت بل وتزلزلت من تحت قدمي المتراخيتين أصلاً من الرعب والخوف, ولكن وسط ذلك كله حاولت أن أستجمع بعض قوايّ المنهارة، وأنا أستفسر في نفسي, لماذا يتكلم هذا معي بتلك النبرة الحادة وذلك التجافي، وهو الذي لم أعرف من يكون حتى اللحظة، ولماذا يكلمني بالعين اليمنى دون اليسرى......!!
لكن وللحظة, انتعشت أساريره وكأنه كان ينتظر مني هذا الاستفسار الآني المتراكم في جوفي...!!
فقال لي بلطف بدا لي: أأنت صابر؟ أجبته نعم، وبارتباك واضح عاد متسائلاً ومستفهماً، ربما كانت حسناتك هي المؤثرة في ميزان مدفوعاتك, وهو يهمهم بصوت مسموع، نعم فأغلب أعمالك بدا وكأنها تخرج من قلبك المرهف قبل عقلك، فأنت شخص تلطف كلماتك التي ترغب التحدث بها مع الآخرين، ودون أن تنطق بها، وهي تصل دون استئذان، فأنت كما يظهر أنفقت الكثير من المال في حياتك, وذلك الأمر يبدو جلياً, في الإحسان حصراً، نعم ولكن في الوقت ذاته يبدو أنك قد أنفقت في غير ذلك أيضاً, فأنت بالتأكيد كنت كريماً أو أحول العين!
قلت له في سري, دون أن أنبس بشيء مما أفكر فيه قولاً, فقد كنت كثيراً وغالباً ما أسكت وأصمت من الذل ولكن بقليل من الأمل الذي أضحيت فيه وما زلت، ولكن أخيراً تشجعت...!!!
قلت له وبعد تردد: إني حلمت يوماً ما، بأني كنت أتألم ولكن ما لبثت أن فرحت بعدها بقليل، وخصوصاً عندما كنت طفلاً لا يفهم أو يفقه من الأمور شيئاً، وليس كما أنا الآن على الرغم من أنني أعرف كم مضى من العمر ولكن لا أعرف كم سيبقى منه حتماً؟ لأني دوماً أؤمن بشيئين وقدرين حتميين لي ولغيري، ليس لي أن أفكر بهما إطلاقاً هما الرزق والموت، ولكن كثيراً ما كنت أسأل نفسي, لماذا امتزجت تلك الأفكار والأحلام بالمآسي والأفراح فجأة؟
حينها انسابت عليّ وكأنها سيول عارمة من تلك المياه المحبوسة والهائجة، وعلى الرغم من كون الهدير هائجاً كالمور، لكن وبعد إصرار وعزيمة تدفقت المياه وكأنها لم تصدق أنها تتهادى في ذلك الوادي السحيق7, لتشقّ لها طريقاً كالصليل الذي ينتج عند تغلغله بين حبات التراب أو شقوق الأرض المنسية.

علمت للتوّ أني الآن، ربما أكون في حضرة الأنا, ليس إلا...!!!
إنني شخص كُتب عليه أن ينظر إلى شخصه هو، نعم إني أنظر إلى شخصي أنا...!!!
فأحاسيسي بدأت تقشعر معها الأبدان وترتجف لها, وكأنني ولدت تواً من الأنا الخفية....
نعم، وربما ولدت من الآخر الذي يسمى بالأنا........
لابد أنه الضمير الحي الذي لا يموت، والذي يحتمل أن لا يتكلم إلا بما يراه وما يتحسسه، أو بما يشعر به مما يقوله الآخرون عني، ويتلذذون به كذلك....
وفجأة ظهر لي مرة أخرى بعد وقت من الغياب.......!!
إلا أنه وبعد صمت رهيب أطبق على المكان.. أهو مرة أخرى، ها هو المدعو رمزي أو كما يبدو لي أنه هو, ربما هو ولا يظهر لي, رمزي ذلك المرء الذي أعرف أو الذي ربما عرفته منذ حين، واختفى منذ ساعات, ثم عاد ليرسم على عينه اليمنى ابتسامة, ليقول لي:
صابر يبدو أنك في البداية والنهاية كنت غائراً منخساً، ربما كنت عارفاً ماذا ترغب وتريد وما لا تريد, كان عليك أن تفهم وكذلك ربما من الأجدر أن تكون عارفاً بما ستؤول إليه الأمور، فدائماً ما يكون الإنسان مرآة لنفسه، ولكن في كثير الأحيان أجدك تتساءل في ذاتك، لماذا نحن هكذا؟ كما أجد البعض بل الكثير من الناس يتظاهرون وكأنهم لا يريدون أن يعرفوا أو يفهموا، وكذا هم موجودون في كثير من زوايا الحياة، فقد كنت تنظر إلى رغباتك الجامحة أكثر مما كنت تفكر بكيفية تحقيقها أو تتبع نتائجها سلباً كانت أم إيجاباً, كرهاً أم حباً, وكثيراً ما كنت تحاول شخصنة الحياة بما ترغب وتهوى وتريد, وكذا الحال أيضاً، كلما علمت عن تلك المزايا فقد عرفت اسوداد الحياة وعرفت الفرح أيضاً, وهكذا بلغت المدى الأبعد من غياب الضمير الحي الرقيب على تصرفاتك دوماً...!!
إنك بهذا تحاول أن يكون فكرك ثاقباً لأن هناك شيء ما لم يكن على ما يرام، ولكن في أحيان كثيرة ربما تكون أفكارك سادية, كمن يسعى باندفاع قهري إلى تحقيق تلك اللذة العنيفة، عن طريق تعذيب الآخرين من خلال الحصول على تلك المتعة الرخيصة والمنغمسة بالألم والمعاناة سواء أكان ألماً نفسياً أو بدنياً أو جنسياً....!!
بدا لي أنك عرفت وحاولت ذلك الأمر, وأنك لا تبوح بالكثير من الأسرار الخفية، إلا لنفسك فقط، لنفسك المريضة بحبّ الأنا السلبية، ثم ما تلبث أن تدعي أنك ناسك «متعبد». فيما هو يتحدث كذلك, رمقه صابر ببعض من نظرات الشك؟ لكن ما لبث أن استمع بدقة لما يقول:
إن ما يجب أن تراعيه دوماً أن هناك مجموعة من الحقائق والتغيرات لا تخص مستقبلك القريب فحسب, بل هي أمور تتعلق بالتفكير والتغيير المحتمل لعدة سنين قادمة وربما أبعد من الآن. فلم تعد الاستراتيجيات المنطقية التي تتبناها وتقتنع بها, تسير بك على أساس ثابت أو نهج واحد من الاستنتاج الموضوعي، بل ينبغي عليك أن لا تعمل بمقتضى فرضياتك وحدك, ويجب أن تخضع لما أنت عليه الآن وما تحاول أن تكون عليه مستقبلاً. انتقد بمنطقية وبأسلوب تفكير أصيل وحقيقي لتأخذ بالحسبان ما يحدث خارج حياتك أو بيئتك.
بعد هذا الوصف الفلسفي العميق والسرد المفصل لشخصيتي, وقد قضيت في ذلك وقتاً طويلاً, لم يكن هناك بد إلا أن أتحدث عن ذلك الوضع الاجتماعي والسياسي الذي كنت أعيش فيه، وقلت له:
هل لي أن أستميحك العذر وأسألك، فأنا عندي سؤال وربما أكثر من سؤال.
ودون أن ينتظر الإجابة مني وكأنه يقرأ ما يجول بخاطري، أردف صابر قائلاً:

ليكن في تصوراتك، إذا كنت وبحسب ما تقول، غير عادل مع نفسك وليس لك القدرة أن تحاسبها على ما مضى من الخوالي إلا بعد حين، فحسابها سيكون من الربّ حتماً، أليس هذا عادلاً؟
ثم لماذا كل هذا الصمت الذي يبدو وكأنه أعلى من الصراخ نفسه, فبالرغم من التحفظ الزائد وتلك النظرة البريئة فلا زلت أخبئ في داخلي الكثير؟
يبدو أنك تقودني الآن إلى حالات تصفني فيها باللاوعي في كشف العورات، وكذلك في كشف الصحيح من تصرفاتي، هل أبدو بكل هذا البؤس الحالك حقاً؟
ولماذا لم يكن بمقدوري أو بمقدور الآخرين أن يسعوا ويوسعوا معي في خيلائهم، هل لكوني معبود مخلوق من ضعف أم لأني أضحيت أشقى بسبب البؤس؟
ثم لماذا تحاول أن تجعلني أفقد المسير وأنت تتراقص وتحاول إخفاء ذلك الأمر الخطير الذي تتحدث عنه بالألغاز أكثر مما تتحدث عنه بشكل واضح دون أن أدري..!!
أنت رمزي أو شبح رمزي لا أعرف, أو ماذا يتراءى لي, قائلاً ومحذراً: لا عليك, أنا لا أقف في طريقك أبداً، ولكن ليكن في علمك أنك لم تصل إلى هنا بالحكمة والعقل بل بسبب قدرك الذي جعلك تأتي إلى هنا، ليس إلا...!!
ربما كانت لديك رغبة كبيرة تصدر من عقلك الذي طالما أراد التحرر من ملذاتك الحقيرة والسادية, كما أنك أردت الحصول على كل شيء، أو ربما كان للفضول الذي ينتابك سبب آخر...!!
وعلى أي حال، أنت الآن هنا في جوف الذات العليا من ذاتك الموجودة والمغيبة بمحض إرادتك، وفي الوقت نفسه لابد لك أن تتكلم كما لابد لك أن تحاكم دون أدنى شك.
أرجو منك أن لا تفكّر ملياً، فكّر بألم وأمل، فأنا أشعر بقدر كبير من الحب والعطف تجاهك, لأنك تحمل الكثير من مزايا التفوق والإيمان بالرغم مما قلته عنك من سلبيات وصفتك بها منذ قليل، ولكن من المعيب أنك لم تملك قوة ما تستطيع معها قتل الذات السلبية الطاغية عليك، بل أصررت في كثير من الأوقات, وتعديت الحدود وتماديت على نفسك وذاتك, فأقدمت على قتل روحك المتفتحة دائماً للحياة للتضحية دون الآخرين...!!
بينما هو يتكلم هكذا كان يتحرك يميناً وشمالاً: إنك في إيثارك هذا، تكون قد فقدت كثيراً من عناصر القوة في روحك المفعمة بالحيوية والأمل، فلم تكن هناك صعوبة في تحرير ذاتك من الإيثار المبالغ فيه، فالصعوبة دائماً لا تكمن في ممارسة الفعل بل في الإصرار عليه والاستمرار في الإيغال فيه!
لقد تعذبت روحك كثيراً في سبيل قضايا الآخرين..!!
بينما هو يعدّل من وقفته، قال له بنبرة حادة بعض الشيء:
لقد تعذبت في سبيل إسعاد الآخرين، وحطمت بذلك ذاتك المرهفة والمرهقة في الوقت نفسه، بل ساهمت في تحطيم كل ما فيها من إشراق وجمال, وساهمت في نكران الذات لصالح الآخرين على الرغم من وحشية تعامل بعضهم وأنانيتهم الواضحة معك...!!!
أكنت تعتقد أنك بهذا الأمر ستكون في حِلّ من المسائلة في تحطيم ذاتك، بل على العكس من ذلك ستكون روحك، وأنا كذلك حاضرَين في أقرب فرصة لمقاضاتك، وربما سيكون الثمن أعظم من خطيئة قد تغتفر...!!

أنت... قالها، ثم صمت برهة! ستجد نفسك حاضراً في تلك الأكوان البعيدة، ستكون منفياً في عالم الأرواح المعذبة، ولا تستطيع حينها، أن تتحدث مع الآخرين أو حتى مع روحك المعذبة بقراراتك العبثية والفردية، ربما تستطيع أن تتحدث مع تسع وثلاثين روحاً من روحك المعذبة، منها الصالحة كما الإله إنكي. نعم ستتحدث رغماً عنك مع تسعة وثلاثين صابراً مثلك، وأنت واحد منهم.
وما إن ذهب وشقّ طريقه، حتى تلاشت أوصالي وأنا أقف مبهوتاً أمامي، أنا صابر الأول, أم أنا صابر الثاني، أم الثالث، وربما أكون الرابع، أم أنا الأربعون, حقيقة لا أدري؟.......!!!!!
عليّ أن أحسم أمري، أحسم موقفي، من أنا؟ ومن أكون؟ من أنا بين هؤلاء؟ أي رقم أنا في حساباتهم؟ اعتبرْ يا صابر هذا الأمر إذعاناً لما يجول في خاطرهم أو خاطري، فهو سيان عندي، هكذا كان يكلم نفسه..!!!!!
وفيما هو كذلك والكلمات تحاول أن تتشكل على لسانه, حاولت أن أجيب نفسي، وأقول لها، إن العبرة ليست في ما أنا عليه الآن أو فيما أنا فيه، ربما سأكون جزءاً من الزمكان، لأفهم من أنا ومن أكون، أو أعرف من أنا، فأنا أصبحت من الآن مجرد رقم في هذا العالم الرقمي غير المتناهي، والعبرة ليست في مدى توافر مفردات قوة العقل أو كما يبدو لي الأمر عليه، إنما العبرة في ترتيب الظروف الملائمة للاستخدام العقلاني لها طالما أحيا حتى الآن، نعم يتطلب مني من الآن ولاحقاً، أن أتعلم كيف أستخدم تلك القوة الكامنة في عقلي...!!
ثم أخذ يتساءل ويستفهم عمّن يكون بأكثر من علامة استفهام وتعجب؟
هل أنا صابر الأول... أم صابر الأخير؟
فهذا يبدو من عهد بعيد جداً, ربما يكون من عهد مردوخ، كما أن الآخر ربما يكون من عهد سيدنا شعيب، فيما الآخر فربما يكون من عهدٍ غابر آخر,
أما الأخير فربما يسكن في عرض البحر المتوسط، أو في أعالي وادي النيل العظيم أو وسطه أو ربما جنوبه.
أنا لم أهتدِ إلى نفسي، فهذا أمر غاية في الصعوبة!
ففي هذه اللحظة كانت الأرض تبدو لي وكأنها تختفي، كما بدت كأنها تتزحزح عن مكانها, ويكاد أن يغمى عليّ, فكيف لي أن أعرفهم؟
يبدو لي أنني الآن أرى نفسي كالآخرين الذين يسعون محاولين أن يصلوا إلى النهاية السعيدة. وبينما أفكر في ذلك الأمر, فإذا بأحدهم، يسارع إلى الكلام مع الآخرين, ربما يكون الرقم ستة وعشرون من نسخة المدعو صابر، لقد كان مثيراً جداً، فيما يقبع فيهم هناك بعيداً الرقم الحادي عشر مغمياً عليه وقد يكون من عالم آخر, فهو لا يبدو كما الآخرين يسير بذات الوتيرة من العزيمة. لقد رأيتهم فعلاً، وحين شاهدتهم لأول مرة كانوا يبدون كالتائهين متفرقين، كما هي أمتنا الآن، «يقصد بها أمة العرب» حين غاب المجد عنها منذ زمن بعيد ولا يزال...!!!
وفيما أنا كذلك فإذا بعينيّ المتعبتين تبحثان بينهم عن ذلك الشخص المدعو رمزي لأنه كما أعتقد كان الأقرب لي في هذا المكان الغريب!!!!
لقد وجدت نفسي تائهاً، نعم تائه مرة أخرى ما بين الأحراش الطويلة المغروسة في تلك الأراضي الرطبة، حاولت أن أضغط على عينيّ المغلقتين، حاولت أن أجد مرة أخرى تلك الشجرة العملاقة, بحثت عنها دون طائل، حينها تساءلت أين اختفت؟
لحظات.. ثم وجدتني أقف أمام مرآة ذاتي....!!!

ربما التعذيب الروحي قد نقلني عبر متوالية من المكان والزمان بين أنفاق عدة لا حصر لها، وربما لسنوات عديدة من عمري لا أعرف كم كنت كأنني أتجاوز ممراً من البلور الفضي متشحاً بملابس تبدو لي وكأنها ملابس فارس من فرسان الرومان, هو ممر ليس كبقية الممرات, وفيما أبتعد عن أرضي التي أعرف، فإذا بي أجد الأخوان المصنوعان مني يقفان أمامي على بعد بضعة أقدام، وفي تلك اللحظة، أصبح همي كله ينصبّ على الإجابة عن تساؤل يبرز لي كالنخلة الباسقة بين بقية النخيل الأقل أهمية ونضارة منها، سؤال يتعلق بي، وهل أنا منهم، فسألت نفسي دون أنبس بصوت ما:

هل يعرفونني؟

حينها كانت المفاجأة...!!

وإذا بهم يهزون جميعاً برؤوسهم الكبيرة بالإيجاب، وكأنهم يقولون لي نعم نحن نعرفك أيها الصديق أو أيها الأخ، نعرفك منذ أن ولدت في تلك البقاع الخالدة وذاك النهر المنساب بهدوء, حينها فهمت أنني وهم جميعنا نشترك فيما بيننا بعقل واحد، نعم فبالتأكيد أنهم موجودون معي ولكنهم يعيشون في أماكن أخرى.

تحدث معي الأخ الأول والذي يبدو أنه الأكبر سناً ويبلغ من العمر عتياً..!!

أكيد هو صابر الأول فحسب...!!

ابتسم لي، وقال: أهلاً بالأربعيني، أهلاً بصابر الأربعين، أنت تعيش كما الآخرون يعيشون في أرض القفار...!!

ولكن، كيف قضيت حياتك هناك بحق الآلهة؟.

لم أحس بجوارحي كيف بدأت تتكلم دون أن أسمح لها بذلك، تساءلت دون أن أتكلم مرة أخرى؟

ولكني تشجعت، وقلت له: لابد وأنك تشترك معي في جوارحي وعقلي, ألم يكن لديك علم أنني فلان، وكذلك تعرف أين أسكن وأقيم؟ وكيف كنت أعيش هناك؟

ألم تعرف إننا نعيش في أرض قاسية وتعيسة وبائسة على الرغم من الخيرات التي فيها، ولكن انتابها الفقر والقرصنة المستمرة من أنفسنا خصوصاً ومن الآخرين أيضاً, وهي لم تعد كما وطئها الملائكة لأول مرة، فقد غدت أرضاً تفرق فيها الأخوة وأصبحوا كالأعداء، بل وانشطروا إلى أمصار وطوائف, عاشوا فيما بينهم صراعاً دائماً فيه القتل والهوان، وصار المرء فيهم يعذب الآخر, بل ويسعى كذلك أحدهم ممن اغتنى بما جادت عليه بواطن الأرض، إلى ذلك الأمر بشتى الطرق ليستعين بالآخرين من خارج الحدود بغرض الإيقاع بأخ له....!!

قال ذلك وهو متألم مما يسمع من حديث، ولما أصاب تلك الأرض وشعبها من شرور أعمالنا.

جرفتني الأمواج إلى ساحل البؤس والآلام...!!

قال لي.... وقد كانت كلماته تنساب في أذني بسرعة وكأنها تشتعل بريقاً.!!

كيف لي أن أعرف ما يجري في تلك الأرض المنبوذة, بسبب قداستها، فنحن نعرف الخير فقط، وحين أتاكم الأشرار انقطع حبل الوصل كما ينقطع الإرسال، نحن نعيش هنا في كون مختلف عن الأرض التي تعيشون عليها، هكذا بدا لي أنه يعيش في عالم آخر.

سألته مرة أخرى: هل لي أن أفهم كيف أنت هنا؟

ضحك مرة أخرى على مضض, ثم عاد ليقول وهو يحاول أن يغيّر من موضع جلوسه:

ألا تعلم بأننا مشتركون في كل شيء إلا في المكان والزمان الذي نعيش فيه. هل نحن من الطين والتراب نفسه أم من الروح نفسها التي نفخت فينا, وهل نحن متشاركون بطبيعتنا, الجواب عن كل تلك الأسئلة وغيرها نعم، ولكن لماذا نحن مختلفون في طريقة العيش؟
عدت وبادرته سائلاً مرة أخرى، وقد بدا أنه فهم ما أريد قبل أن أسترسل في ذلك الأمر... ربما كذلك..!!
هل تعرف ما بداخلي من شعور مختلف عنكم؟
وهل تعلم بأننا نعيش بلذة قاسية ابتدأت من ظلم بني الإنسان كما ابتدأت من أخطائه، على الرغم من علمه بالحق دون ذلك, هل أنتم حقاً تعرفون هذه الأشياء؟
ثم عاد ليضحك مرة ومرات أخرى متتالية، دون أن يجيبني بالنفي أو الإيجاب، ربما يريد أن يجعلني أستطلع ذلك الأمر بنفسي، ثم ما لبث وأن تحرك نحو تلك الأحراش ليلتقط منها شيئاً ما, ثم رجع يسير نحوي.
وما إن رجع، أردف قائلاً:
إن أردت أن تعرف تاريخي فإنني أرجع إلى عهد سحيق من الآلاف بل مئات الآلاف من السنيين.
لقد عشت في بدايات خلق البشرية وصارعت الوحوش الضارية كما تصارعون الآن الضواري، ولكن الاختلاف الجوهري بيننا وبينكم أن الضواري أضحت تنساب من داخلكم أنتم أنفسكم، نحن لم يكن لدينا ما نعبد, بل كنا نجد أنفسنا بين مجموعة من الأصوات والألحان، أصوات وأنغام جميلة من التهامس والحب ننام وننهض على أنغامها، ولم نكن نعرف ما هي الغلة، وما هي النفقات كما لم نفهم الريع والفائدة، وكذلك لم نعرف معنى الخيانة، كل ما نفهمه، أننا نأكل لنعيش ولنعمل، ولكنا كنا نعيش بوافر من الحبّ الظاهر والباطن، نحن كنا نعيش هاجس الحب للأرض، ثم أخرج منجله، نعم: فقد كنا نزرع الخير والحبّ في الأرض التي كانت تتراقص وتتناغم معنا ومع بقية المخلوقات الموجودة عليها, لم أكن أفهم وجود أشياء كانت تتراءى لي, تارة تشعرني بالغضب والألم، وتارة أخرى تشعرني بغير ذلك.
لابد أنك صابر، أنت صابر آخر الزمان..!! حيث يبدو ذلك واضحاً لي.
هكذا أجابني، ثم أردف قائلاً: أنت لست ابن الأرض التي تعرفنا ونعرفها، أنتم أعداء الأرض، فقد اشتكت ولا تزال تشتكي وتئن لنا منكم، بل تئن منكم كثيراً، نعم:
لقد فعلتم فيها الكثير من المآسي والفساد.
لا أتذكر أننا كنا نخاصمها يوماً، أو نصدر شيئاً قبيحاً ملوثاً نجعلها تعاني منه، بل أتذكر أننا كنا كالذرات التي فيها بل نحن ذرات منها، ننتمي إليها وتنتمي إلينا, فعندما نيأس, نذهب إليها لتغمرنا بدفء حبها دفقاً وحجارة ونماء, حين ذلك فهمنا أنها وأننا بحاجة دائمة لتلك الآصرة الروحية والمادية بيننا, وحين كنا نحتاجها أو تحتاجنا تكون حاضرة دائماً، وعندما نفرح نذهب إليها كذلك، فقد كنا تراباً حقيقياً تراباً شيقاً ومحباً للأرض، ولكن ما أنتم عليه الآن هو أمر موعود، وقد انكشف ووقع الكثير منه ومما سيقع، فحين انبعجت الأرض المقدسة منذ سنوات، قلنا في أنفسنا إنه هو, نعم هو أمر جلل آتٍ لا محالة، وهو آت من الخالق السرمدي.!!
لم نعد نعرف أأنتم التراب أم الغبار, وعندما كبرت لم أعد أتذكر كم من دموع سكبتها الأرض عليّ، فقد كنت أحسّ بها وأتنفس هواءها.
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾.
القرآن الكريم سورة إبراهيم 48

7 - وادٍ كبير من تخيلات المؤلف.

طريق الحقّ.........

وصلة من الحوار والعقاب والتمني تحركت فيها المشاعر والأحاسيس، متنقلاً فيها ما بين المدينة الخالدة عبر ذلك النهر المتهادي إلى تلك البقاع البعيدة حيث الأحراش الطويلة المتشابكة، حين يلتقي النهر فيها برافد آخر, كما يلتقي هو مع مجموعة الصابرين التاريخيين، ليقف في مشهد أمام الأنا، بل ليقف أمام ذلك الضمير الحي الذي لا يموت، لكن الرحلة لم تكن إلى ذات الأرض التي يعرفها، إنما كانت إلى أرض أخرى، اختلط فيها النعيم بالحزن، فلم تكن الأرض نفسها بل كانت أرضاً من زمن آخر, حاول جاهداً أن يبقى معهم ولكن دون جدوى, فلكل واحد منهم حياته وأسلوب معيشته وهو بالتأكيد يختلف عن الآخر، لكن لابد أن يحاول ليجد آخرين يشابهونه تصرفاً، وهذا ما سيكون.........

بكى صابر الأربعيني... بحرقة كلما اشتد ألم فراقه عن الآخرين، فقد ذهب بذكرياته المؤلمة نحو المئات بل الآلاف من السنوات يوم كانت الأرض غير الأرض، والكائنات التي فيها غير كائنات اليوم......

قال في سريرته: حاولت جاهداً أن أبقى معه ولو لحظة أسترقها منه لأعرف الكثير عما يتحدث عنه، لكن دون جدوى، فقد ذهب إلى غير رجعة...!!!

اجتزت طريقاً آخر، فإذا بي أقف أمام كوكب بدا لي وكأنه يبرق كثيراً، ثم انشقّ لي طريق مختصر...

وإذا بي أمام أحدهم، وسمعته يقول لي:

أهلاً بصابرنا الأخير....

وفجأة ظهر لي بهيئة شخص كأنه أنا.....!!!

من أنت؟

تبسم ضاحكاً لي, قائلاً: ألم تعرفني؟

أنا أخوك الكبير صابر التاسع والثلاثون، وظل ممسكاً بي دون هوادة، ألا تعرفني؟

قلت لا، وأنا أرتجف خيفة، متسائلاً في نفسي:

من أين أتيت أنت؟

وأين أكون أنا الآن؟

لم يكترث لما أفكر فيه, فقد سبقني هو بالكلام قائلاً:

إني أنت، وأنت أنا......!!!!

أنا أعيش هنا منذ آلاف السنين وأعرف أي خطوة تخطوها مهما كانت, ثم صمت برهة وكأنه دخل في عتاب مؤلم معي واستفسارات متعددة لم يجد لها إجابة واضحة، وعاد ليصمت، ثم سريعاً ما تكلم حينما قال:

إني ما زلت أتجول هنا منذ زمن طويل، وكثيراً ما كنت أبحث عنكم، كما أخوتي الأربعون يفعلون ذلك، لقد شكتكم كثير من الكائنات الأخرى لنا؟؟

وفيما هو كذلك يسترسل في الكلام والوصف مرة، والتعزيز مرات أخرى، صرت أخالط نفسي وأنسلّ بخطوات خجولة من الصمت، ما بين الخوف وبين اختلاج القوة المزيفة فقد تعذبت منذ فترة

وما زلت أتعذب... كذلك!
قال لي... أنا من زمن جدكم آدم عليه السلام.. ثم أردف قائلاً:
نعم أنا ومنذ ذلك الوقت أعيش هنا, وحين فشل القدر في إيقاف حكم الإعدام لأحد أجدادنا، أتذكر كيف تلفظ أنفاسه الأخيرة وهو ينظر إلى بني آدم ويقول في سره إنه نفسه الذي أغوى جدنا فلا يزال هو كذلك يغوي الآخرين، كان يقول ذلك وقد بدأ قلبه ينبض بشكل أسرع من ذي قبل.
أنحن الأخوة الأعداء....؟...
أنت لماذا تقف هناك خائفاً، تعال إلى هنا لأقدمك لهم, وأقدمهم لك، وأعرّفك بإخوانك الآخرين الذين هم منك وأنت منهم......
وإذا بي أقف أمام خمس وعشرين شخصاً أو يزيد، كأنهم أنا، نظرت إليهم أول مرة بريبة واضحة دون أن أمضي بالكلام، وإذا بهم يتكلمون بصوت واحد:
أهلاً بك يا صابر... حللت أهلاً ونزلت سهلاً.
بينما انبرى آخر، وقال:
أنا أخوك من زمن النبي إبراهيم (ع)، وآخر يقول: وأنا من زمن النبي موسى (ع)، وآخر: أنا من زمن قصي، وآخر: أنا من زمن ذلك الرجل الذي أضل طريق الحقّ كما أضلّ الآخرين وقتل ابن الحكيم البريء.......!!
وآخر انبرى قائلاً، ويبدو أصغرهم سناً، وكما يبدو لي أنه الأخير منهم:
لا تتفاجأ يا أخي إذا قلت لك أنا من جزيرة تقع في شرق الأطلسي قرب مراكش، وسبق لي أنا, نعم، أنا وكررها لعدة مرات، أنني التقيت بك أو ربما كان أحدنا في رحلة صيد في الصحراء الغربية.
ارتعشت فرائصي فعلاً، وقد شوش لي عقلي الفارغ منذ حين، بأنني ربما أكون قد رأيته، نعم في تلك الليلة حالكة الظلام، ولكن لماذا بدا لي أنه والآخرون يتهامسون فيما بينهم وأنا أنظر إلى كل واحد منهم، وهل أنا بذلك البؤس أصبحت!!!
وفجأة وإذا بي أسمع أصواتاً عالية مجلجلة ملأت المكان, تبدو كأنها لمحركات نفاثة تسير بسرعة قصوى قد هوت على الأرض، وفيما أنا كذلك كنت كأني أجد نفسي قد اقتلعت من جذوري من شدة العصف ثم أهوي نحو بحر ما، شعرت حينها بالبرد والخوف والجزع، ووجدت نفسي في حالة من اللاوعي مرة أخرى، لأعود وأتساءل في نفسي:
ما الذي افتقدته من عقلي أم ماذا حضر للتو؟
هل رجع بي العقل المغيب دائماً إلى شيء لا وجود له....
أم غير ذلك... لا أعرف حقاً.. ها هو قد عاد... لا أعرف...!!
انطلقت مسرعاً لأمضي بمسيري ولأجد نفسي قد تعبت من المسير المضني الماضي إلى ما لا نهاية، وإذ بسيارة مسرعة قادمة نحوي من الشرق, فوقفت أمامها مذهولاً، أحاول أن أستوقفها بشتى الطرق, وإذا هي فعلاً تقف بتبرم...!!
فإذا بي أمام ثلاثة أشخاص، رجل وامرأة مع طفلهما.
وكما يبدو لي أنهم عائلة...!!
أهلا بك ماذا تريد، بلغة أكاد أفهم منها بعض الكلمات؟
ألم تخف أن تقف في عرض الطريق؟ كدنا ندهسك، كيف تقف هكذا؟

لم أتكلم فقد تلعثم لساني....
وكأنني أولد من جديد... نعم أبدو وربما لذاتي فحسب، كأنني أولد لأول مرة ومنذ زمن بعيد
حاولت أن أتكلم، ولكن لم أستطع النطق، حاولت مرات أخرى, ولكن لم تعد الكلمات تقبل أن تخرج مني..!!
حينها حاولت استخدام لغة الإشارة، لكني وجدتهم لم يفهموا شيئاً كذلك..
استجمعت قواي كلها، فقد لا يكون الخروج من المأزق إلا الآن...
وقلت بلغتي التي أعرف... أنا تائه ولا بد أن يفهموا ما أعني..
هل لك أن توصلني....... إلى...؟؟
تكلمت مع الرجل، كما حاولت الأمر ذاته، كذلك مع المرأة... كما نظرت إلى الطفل لأستجدي عطفه هو الآخر... ربما يفهم ما أريد.
ولكن لم يفهموا ما قلت..
حينها عرفت أنني قد سقطت أو رُمي بي في بلاد أخرى غير التي أعرف..
وأخيراً سمحوا لي بعد معاناة حقيقية وتوسل مذل أن أدخل إلى العربة......!!
حاولت أن ألتمس العذر لنفسي، ولكن في لحظة ما بدا لي أنهم ليسوا ببشر حقيقيين، كأنهم أشخاص مخلوقين من طين آخر، رأيت ذلك الأمر بأم عيني، وكان الأمر يمر بسرعة البرق وإذا بي أُرمى من تلك العربة لأرتطم بحافة الطريق، حينها فقط تداركت نفسي وبدأ قلبي يضعف ويرتعش بشكل كبير، نظرت إلى الأفق البعيد، لم أجد بداً إلا أن أعود أدراجي نحو مدينتي التي أعرف...

عشية اليوم التالي..........
في تلكم الأثناء كان صابر قد قضى زمناً ليس بالقليل، يحاول أن يفهم أين يكون، وهو لا يزال في حوار دائم مع الذات، إلى أن استجمع قواه الخائرة، معترفاً بأنه بحاجة للعودة إلى أرض الميلاد مرة أخرى, نعم يجب أن يعود مرة أخرى ليبدأ رحلة من الشقاء والإحساس بالألم الذي انتابه منذ ذلك الوقت وصولاً إلى البحث الذي عليه الآن في حالة من اللاوعي, وكيف له أن يتلمس أو يتحسس الشريحة التي زُرعت فيه وجعلته يتصرف هكذا، كما جعلته يعيش حالة من الاستظهار لأبسط التفاصيل بحيث أخذ يدور بين رحلتين من الألم والأمل، لكن ربما سيكون له لقاءات جديدة مع أشخاص آخرين، وربما كذلك سيحاول أحدهم إنقاذه مما آل إليه حاله، بسبب ما مكث في مخيلته من آثار تلك الليالي التي عاشها، وتلك الرحلة الغريبة التي مضى فيها متنقلاً بين أماكن وأزمان مختلفة، ما بين ذكريات مدن الألم، وما بين غابات الأمازون، لقد أضحى دائم التساؤل، ولم يعد ذلك الإنسان الهائم في قلب الظلام؟؟....
بزغ النهار، وكان الجو لطيفاً، بعد أن قضى أكثر من ست وثلاثين ساعة، استيقظ صابر من نومه العميق بعد أن كان فيما مضى يشعر بالبرد والارتجاف، ربما بسبب الإعياء الشديد والمرض الذي انتابه وألمّ به منذ أول أمس، فإذا به يجد نفسه يستيقظ فجأة والعرق يتصبب من جبينه, أهي الحمى التي ألمّت به، وجعلته يبدو هكذا؟
وفيما أنا هكذا أتساءل في نفسي, فإذا به يقوم مسرعاً نحو المطبخ ليتناول شيئاً من الماء، وهو يتأوه بشكل واضح واضعاً يديه على رأسه المثقل، وفيما يقترب من البراد، وهو كذلك يكاد يقترب أكثر وأكثر منه, وعندما أراد أن يمسك بمفتاح الباب فإذا به يسقط ويرتطم رأسه بقوة على الأرض, يبدو كأنه عاد من غيبوبته التي دخل فيها من جديد، الغيبوبة التي لم يبرحها منذ هُنَيْهَة، وقد بدأ يترنح، وخيل لي أنه يسقط من مكان شاهق، وإذا بالهدوء يسود المكان برهة من الوقت.
صابر... هل أنت بخير، أجبني.
محمد قائلاً:
صديقي صابر ماذا أصابك يا أخي منذ يومين؟
صابر:
وبعد صعوبة بالغة في التقاط الأنفس، وبكلمات مبعثرة لا أكاد أفهم سوى بعض منها
«محمد»،
لا أعرف حقاً أين كنت؟
أين اندفعت؟
كنت أحاول أن أصرخ، ثم ما لبثت أن سحبت يديّ في ليل الغابة الكثيفة.
ولكن يبدو أني كنت في سفر بعيد وخيالي، لم أستطع طوال تلك الرحلة أن ارتشف قطرة من الماء، فقد كنت جامداً ومعذباً في الوقت نفسه, وكأنني في محاكمة أبدية, وكنت أحاول أن أصرخ بالآخرين لينقذوني، فطوال تلك الرحلة الغريبة كنت شخصاً معذباً جداً، نعم لقد كانت رحلة غريبة الأطوار, وكأنني كنت داخلاً في قبر كما خيل لي أول الأمر، ثم ما لبثت أن أكون متسمراً في كائن حديدي غامض هو الآخر, ينقلني من كوني هذا إلى أكوان أخرى، وبالرغم من الخوف والرعب

الذي انتابني طوال تلك الرحلة غير المبرمجة على جدول أعمالي، لكنني ما لبثت أن أصبحت شغوفاً بها، خصوصاً وأني اجتزت تلك الأزمنة الغابرة وبسرعة متناهية، كنت كما أنا الآن، أتذكر أني التقيت نفسي وكنت أستطلع خفاياها المكبوتة في داخلي, وكيف كانت روحي السادية تظهر أمامي وتتبختر، وكيف كنت أتأمل أفعالي المشينة، تارة مع أولئك النساء اللاتي كنت أتلذذ بعذاباتهن بوحشيتي المقرفة، وتارة أخرى مع أخريات عاقبتهن كذلك دون ذنب ما, حين تذكرت تلك الأمور دون أن أفصح لهم عما يجول في خاطري, فقد تذكرت تلك السيدة التي تدعى مس ماريا ابنة الخامسة والأربعين من العمر، المرأة التي فتحت لي بابها وبيتها للسكن عندما كنت طالباً في الجامعة في تلك المدينة الكبيرة والبعيدة عن منطقتي النائية, كانت امرأة ناضجة، وممشوقة الطول، ويداها ناعمتان، وذات شعر أشقر، لكنها كانت بعيدة عن كثير من عاداتنا التي نعرف. وصلت إلى تلك المدينة النضرة ذات الأضواء الزاهية، وليلها الذي يخفي خلفه الكثير من قصص الفقر والفاحشة والغنى الملطخ بالدم والذهب, وأنا أحمل كثيراً من تخيلات قصص الهيام والخوف، أنا الذي أتيتها من ذلك الريف السحيق، بل جئت من تلك القرية البائسة البعيدة عن الحضارات الجديدة، على الرغم من قرب أطلال الحضارات القديمة من بيوتات الطين التي كانت تأوينا, جئتها وكأنني وحش مفترس وكاسر كان مودعاً في قفص ما, واتته الفرصة الثمينة لينتفض وليحطم القضبان، لم يكن رؤوفاً بأقرب الناس إليه ممن آووه من الضياع والضباع البشرية.
تذكرت ذلك كله في رحلتي تلك، وأنا لم أكن حقيقة وديعاً أو ودياً معهم جميعاً، نعم إذ كان ذلك الأمر الشنيع قد تكرر مع الكل, سوى مع تلك المرأة الرائعة والمضحية, أو كانت تبدو لي كذلك, حينما انحنت عليّ بكثير من الحب والشفقة حين تصورتني ذلك الصبي الهائم، وربما خيل لها أني كنت مجرد صبي عابر للسبيل باحث عن لذة مدفوعة الثمن, فقد فعلت معها ومع ابنتيها كارمن ونورا اليافعتين الباحثتين عن الحياة واللذة، الفاحشة المحرمة، رغم الوعود الفارغة بالزواج من إحدى ابنتيها، نعم فقد كنت قد وعدت ماريا بذلك, وهي التي كانت تعتاش من رزق ذلك البيت المتهادي والواقع في ذلك الحي اللاتيني القديم والقريب من مركز العاصمة التجاري، والمتجلية بناياته في عمارتها وعمرانها وكأنها جزء من العصر الفيكتوري والعمارة اليهودية. حين تركها زوجها عبد المسيح الذي كان يعمل طباخاً معززاً مكرماً في قصر السيد المبجل، وهو نفسه الذي سيق في وقت ما إلى مقصلة الإعدام حين أضحى ابن الزعيم لا يطيقه حينما يراه، هكذا تقرب من الرأس الكبيرة متهماً إياه بالخيانة والتواطؤ مع السيد المبجل، لتصبح هذه العائلة بفعل القتلة المارقين والسادة اللصوص في مهب الريح والرذيلة والنخاسة, وكانت البراءة تغتصب منهن في وضح النهار، كل هذه الأمور وغيرها جعلت منهن نساء للبيع ولتجارة النخاسة والبغاء والدعارة, وجعلتهن يشعرن بكثير من المهانة والرخص ولينجبن أطفالاً ملئوا شوارع العاصمة والطرقات القريبة من تلك البيوتات العتيقة المكتظة بألم الضياع، ليلتقطوا رزقهم مما يرمى لهم من فتات أغنياء الصدفة وسياسي الغفلة. هذه صفحة من صفحات ما رأت عينيّ في تلك الرحلة، تساءلت مرات ومرات، هل هذا الذي أتذكره, هل كان حقيقة أم هو شعور من الخيال ينتابني؟
لقد انتظرت كثيراً من الوقت للعودة إلى البلد الذي أحب، ولكني فكرت ملياً، هل سيكون مصيرنا كما شاهدت وكما كنت؟

لم أستطع الاحتمال وقد بدا الكون من حولي يخيفني، وازداد الرعب في داخلي، لم أكن أعلم أنني كنت نسياً منسياً، ولكن المثير في الأمر أنني أصبحت فجأة هناك وأنا هكذا حين شاهدت تلك

الأضواء الجميلة، التي ازدادت وازدانت بالشعور فيها بإحساس غريب وجميل، فقد أحسست فجأة أن الحياة قد دبّت فيّ مرة أخرى، وقد كانت أنواراً مختلفة الألوان من الأضواء الجميلة ربما كانت لأشخاص أقرب إلي، فكم من قريب التقيت, نعم كأنها صور لأكثر الناس عطفاً عليّ، وكانت هناك أطياف من الأقمار الجميلة ازدانت بشيء من الفرح، وما إن اقتربت منها حتى غابت عني وابتعدت مسرعة كالسراب، وأنا مازلت أتحمل الكثير من البكاء والنحيب المستعر في داخلي، وعلى الرغم من تعلقي بهم كثيراً, فإذا بالرحلة قد وصلت إلى نهايتها، في الحقيقة كانت رحلة عذاب وألم وحساب كما كانت رحلة لمحاكمة صورية عقدت لي في محكمة العدالة، وكأنني هو، أنا لا غيري المسؤول الأول عن خراب هذه الأرض، ولكن مع ذلك فقد كانت كذلك رحلة جميلة وممتعة.

فجأة أصبحت وحيداً دون تلك المركبة الخارقة التي حملتني إلى تلك الأمكنة البعيدة، والتي لم أستطع أن أشاهد منها سوى ظلال من البحار والمدن المنسية في ذلك الليل الطويل، وبدت لي وكأنها أرض أعرفها من الخرائط والأفلام, وكأنها قلائد لنساء من غابات الأمازون يتحركن ويتمايلن برقصاتهن الرشيقة، وفيما هن كذلك يرقصن على موسيقى الفلامنغو الرائعة, خيل لي ذلك أن أكون واحداً ممن يغامر معهن، ولكن الحقيقة التي أحيا فيها أنني كنت مقيداً من يديه ولا أزال في تلك الليلة المقمرة، ولكن لم أجد بداً من أن أتلمس بعضاً من ضيائهن، وأحاول أن أسمع برغبة جامحة أصواتهن الجميلة، ولكن كثيراً من الصور تراشقت أمامي دفعة واحدة وسرعان ما كانت صوراً مختفية وملبدة, وهي صور لا تزال باقية في ذهني وفي ذاكرتي الممتلئة بها وبغيرها من الصور, ولكني في الوقت ذاته كأني أبصرت ناراً متقدة، بدا لي وكأنها نار جهنم ذاتها, وخلال لحظات، تصفحت صفحات حياتي وحاولت أن أعرف أين كنت وكيف يمكن أن أبدو أفضل حالاً، حيث كنت أسمع أصوات المعذبين بلهيبها، ولكن إحساسي كان ولا يزال حراً طليقاً, لقد كنت أحس بهم وتألمت لتألمهم، كما واسيتهم، بل وأشفقت عليهم، لأنهم لم يعرفوا الحق إلا بعد فوات الأوان، وعرفت للحظة أني كنت في رحلة عذاب وسعادة، رحلة ما بين الأنا واللا أنا، وكأنني في عالم الأموات...!!!!

محمد قائلاً: صديقي ما الذي أصابك دفعة واحدة؟

هل أنت تهذي أم ماذا؟

هل كنت تعرف أنك كنت تعاني نزلة برد شديدة؟

فقد تناولت علاجاً تقليدياً، ولكن عندما ساءت حالتك ذهبت بك إلى المشفى القريب والتابع للجامعة، أدخلوك في غرفة للعلاج وحدك, حيث لم يسمح لي بالدخول معك، وبقينا لبعض الوقت، وحين رجعنا من هناك وجدت في ذراعك الأيسر شيئاً غريباً!!

قلت لك في حينها ما هذا يا صابر؟

لم تجبني لأنك كنت على وشك فقدانك الوعي، أو لم تكن تعرف، أو لم تكن تعنيك بشيء، ولكن المرض ازداد وقعه عليك وكان شديداً وقاسياً!

لم أكن أعرف ما تعانيه بالضبط. لأتصرف حيال ذلك؟

حقيقة لم تكن جيداً، ولكنك حين ذاك ابتسمت، وقلت لي بصوت خافت:

لا أريد شيئاً... فقط أريد أن أنام، وأن أنعم بقسط من الراحة،

حتى وأنت تتكلم معي هكذا لم تتذكر، وغططت في نوم عميق.

صابر: وهو يحاول أن يتظاهر بأنه رأى كل هذا من قبل.
محمد: قبل أن أخلد إلى النوم, وجدتك قد أصبت بتعرق شديد تصبب من وجنتيك حينها، سارعت لأضع المزيد من الكمادات على جبينك، لم أعرف ما هذا الألم الذي ألم بك فجأة وجعلك تهذي في نومك إلى هذه الدرجة, لم أستطع أن أفهم ما كنت تهذي به، فقد كنت تتفوه بكلمات مبعثرة لم أفهم منها شيئاً, تفوهت بكلمات مثل أنا من الحي اللاتيني مدينة... ساحة..... نهر...؟؟؟
ولم أستطع أن أسألك تفاصيل ذلك لأنك بعدها دخلت في سبات عميق...
صابر: لم أستطع أن أكون بشكل متعافٍ حقاً؟
لم أكن أعرف أين قضيت وقتي كل هذه الساعات الطوال؟
ولماذا كنت منزعجاً حيناً وفرحاً في أحيان أخرى؟
خلع ملابسه ثم ترجل عن الأريكة، حاول أن يتحرك في أرجاء الغرفة، فربما جعله المرض يفعل هكذا، بدا له الجو شديد البرودة وشعر بضيق في التنفس, كأنني عدت من سفر طويل، كأنها ليست ستاً وثلاثين ساعة كما تقول، بل أحسست أنها ست وثلاثون من السنين أو أكثر, إنه لأمر عجيب أن أجد نفسي مرة أخرى هاهنا, وكأنني أولد من جديد.
محمد: دعك الآن من هذا الهراء، لقد تم تطعيمك من مرضك الذي ألم بك, هذا ما سمعت الأطباء يتحدثون عنه...!!
صابر: عن ماذا سمعتهم يتحدثون، تكلم؟؟؟ أجبني حالاً، عن ماذا، تتكلم؟
وأي تطعيم تقصد؟
الظاهر أنني كنت تحت تأثير تلك الشريحة التعريفية التي في ذراعي الأيسر, إني أتحسسها الآن جيداً، ما الذي فعلوه بي؟
فهمت الآن، إني أتألم وكأني أخرج من جلدي وأشاهد آخرين كأنهم أنا, يتكررون معي بصورتي، بل يتكلمون معي, وكانوا يبدون في بعض الأحيان كالآخرين همجيين في تصرفاتهم، وكانوا يشربون الماء دوني بالرغم من أني كنت ظمآن، وهم يأكلون كما نأكل أيضاً في حين لم أتناول شيئاً.
قل لي ماذا حدث معي، فلا الأرض التي أعرفها نفسها ولا السماء ذاتها، لقد كنت مهاناً في منامي لقد شاهدت نفسي مراراً وتكراراً، ألا تفهم؟ أين عولجت؟
ماذا أعطيت من علاج، وأي علاج هو؟
من أولئك الذين عالجوني؟
من هم، كلمني؟؟؟
أتعرف أنني تخيلت نفسي للحظة لو حملتني فراشة وجلبتني من مكان ما, لأتجول بين تلك الأحراش والغابات الكونية المتراصة، حاولت أن أستكشف فيها تلك المناطق الرمادية الأكثر إثارة حين كنت في سنوات المراهقة من عمري.
محمد: أترغب يا عزيزي أن نخرج لنستنشق بعض الهواء ونقضي بعض الوقت، ربما ستتحسن قليلاً، انتظر لأنني سأخبرك بأشياء كثيرة..
صابر: كيف لي أن أتحمل كل الذي حدث معي، أنا حتى هذه اللحظة لم أصدق ولم افهم ما الذي حدث معي، لقد عرفت من رحلتي، وهي محفورة في ذاكرتي ولا أظن أنها كوابيس أو أضغاث أحلام، من هو صابر المسيء ومن هو الجيد، فمنهم كانوا من الأوائل الذين ما زالت تجري في

عروقهم الدماء, عرفت ذاتي من نفسي وكأنني استنسخت بعدة صور وأوراق من نوعيات مختلفة، فهناك صابر المصنوع من أوراق وصحائف ذلك الورق التالف الأسمر, كورق الجرائد القديمة وغير المقروءة، وأتذكر صابراً آخر صُنع من الورق الزبادي, ولكن في نهاية مطاف تلك الرحلة، إذا بالكل تفرقوا بل وتباعدوا عني وتركوني دون وداع، حينها ظهر صابر الحقيقي وبصور مختلفة، لم أكن أعرف العذابات والفرح إلا بعد أن مرضت، وكيف لها أن تحضر في آن واحد. دعك الآن من الخروج, ودعني أتصفح ما جاء في بريدي الالكتروني، لأعرف من الذي اتصل بي، ومن أكون أنا، ومن تكون أنت، ولماذا أنا هنا، ولماذا دموعك تنساب على وجنتيك، من أنت؟

محمد: دعك الآن من هذه الأمور وتلك, لا تعذب نفسك كثيراً فنحن ما نزال نحيا معاً، وهذه هي الحقيقة الوحيدة، فنحن نمثل المعرفة الوحيدة في هذا العالم السفلي، ربما كل ما كنت فيه أنك كنت في خيال أو في حلم مزعج، لابد أن ترجع إلى أبحاثك العلمية في المجال الذي أحببت، فالوطن ينتظر بشغف ذلك الإنجاز الباهر؟؟؟!!!

ومن الضروري أن يكون تفكيرك منذ الآن ومستقبلاً، منصباً على إيجاد أهداف متناوبة وخصوصاً عند المحاولات المتكررة لتحقيق هدف ما، لأنه أمر مهم خصوصاً إذا ما عرف خصمك وعلى وجه التحقق والدقة تلك النقطة التي اخترتها للبدء لوصولك إلى الهدف، ربما قد تمكن منك سريعاً بل وقد يأخذ من الوقت ليحذر ويبدأ بخلق الوسائل المناسبة لإحباط تحقيق كل هذه الأهداف أو غيرها، أما إذا وقع على محور جهد يهدد أهداف متناوبة له، حين ذلك سيمكنك الوقت والمكان من مشاغلته, وخداع أفكاره ووسائله الشيطانية، وهذه أفضل طريقة للهجوم على الخصم لأنها الطريقة التي ستسمح لك بتحقيق الأهداف الحقيقية المراد إنجازها، ففي الوقت الذي يكون فيه خصمك منشغلاً بمواجهتك والحيلولة دون تحقيق كل الأهداف المعلنة، عليك لا أن تبقى أسير هواجسك ورغباتك المكبوتة، اجعل نفسك ومستقبلك أن يكونا أسيراً لعقلك.

(إمبراطوريات المستقبل هي إمبراطوريات العقل)

ونستون تشرشل8

لكني معك، لهذا أرغب أن أخبرك بشيء ما، وأتحدث إليك عن بعض الأشياء المهمة التي حصلت لي أنا أيضاً, هكذا حاول محمد القول, وفجأة تعالت الأصوات في الخارج دون أن يتمكن أن يخبر صديقه بما يختلج في صدره من حقائق أو أمر مهم، قد حدث له ما أراد أن يحدث صديقه به؟ وإذا هما كذلك يتجاذبان الحديث بنبرة عالية تارة, ومنخفضة تارة, فإذا بهما وكأنهما يشاهدان أو يخيل لهما أنهما يشاهدان حدوث صراع هائل، فيسمعان أصواتاً تتعالى هناك، يبدو أنها لأناس يصرخون هكذا دائماً، يبدو ذلك من خلال أصواتهم العالية، كل هذا يحدث وهما يهمان بالخروج, أوقفهما أحدهم صائحاً، على الفور ودفع بهما نحو الداخل، حاولا الاندفاع خارجاً لاستطلاع ما يحدث من صراخ وهيجان, وإذ بهما يجدان نفسيهما، يحاولان كذلك ويحاولان أن يفلتا من ماسكيهم دون وعي ليخرجا، ولكنهما لم يفلحا في الخروج ليستطلعا ما يحدث، حتى تفاجأ بوقوع شيء ما, شيء كان كافياً ليفقدهما الوعي ويصبحا كجثتين هامدتين.........

8 - ونستون تشرشل (١٨٧٤-١٩٦٥) رئيس الوزراء في المملكة المتحدة من عام ١٩٤٠ وحتى عام ١٩٤٥ (إبان الحرب العالمية الثانية)، وفي عام ١٩٥١ تولى تشرشل المنصب ذاته إلى عام ١٩٥٥. يُعد تشرشل أحد أبرز القادة السياسيين خلال الحروب التي اندلعت في القرن العشرين,

قضى تشرشل سنوات حياته الأولى ضابطاً في الجيش البريطاني، ومؤرخاً، وكاتباً، بل وفناناً، كل ذلك في آن واحد. تشرشل هو رئيس الوزراء الوحيد الذي يحصل على جائزة نوبل في الآداب.

(٥)

جزيرة غوانغدونغ.....

فيما هما يتجاذبان أطراف الحديث، خرجا، ليجد صابراً نفسه فريداً وبعيداً عن صديقه، إنه الآن في مكان آخر، وفي بلاد غير تلك البلاد التي يعيش فيها حيث يدرس، هو الآن في جنوب شرق آسيا، بدا له كل ذلك وكأنه في مهرجان من الأسى والحزن على الرغم من بهجة المنظر...

فجأة تعالت الأصوات واختلطت الهواجس ما بين الخوف والهلع، الكل يتراكض مسرعاً نحو مكان ما في هذه الجزيرة النائية التي تقع على الحافة الجنوبية من بحر الصين، يتراكضون وكأن هناك شيئاً ما قد حدث، وربما الآن تحديداً قد أصبح خطيراً جداً، كان الناس وكأنهم في ثواني العمر الأخيرة من أعمارهم، يتراكضون وكأنهم أجذاع نخل يابسة، خائفون من شيء ما, لم يستطع المرء تمييزه، لكن حدث شيء هائل بالتأكيد...!!

أحدهم كان صابراً أو يخيل إليه، وهو كذلك كان شخصاً منطلقاً مبشراً معهم، ربما هو أو آخر غيره، وكأن شيئاً مهولاً يحدث, انطلق مسرعاً مع الآخرين نحو حافة البحر الهائج، لقد ضلوا كل الطرق المعتادة، إلا أنهم اهتدوا أخيراً إلى الطريق الوحيد نحو البحر تحديداً، ويبدو من حالهم أنهم يسعون إلى غاية واحدة لا غير، كأنهم ينتظرون قدوم تلك الباخرة العملاقة التي ستقلّهم إلى مكان ما، ربما هم الآن عطاشى، فقد مضى وقت طويل وهم يتراكضون ويجرون, كان مشهداً غريباً فعلاً, كأنهم في يوم النهوض الأخير بعد سبات طويل, بحيث تعرضوا إلى رياح عاتية على نحو ما، وكانت السماء ملبدة بالغيوم السوداء وبالرماد الكثيف والثقيل، لعلها تنذر بشيء ما، كانشطار في ذرات الطاقة، فقد كانت الرياح تحمل غباراً ناعماً ذا إشعاعات لا ترى لدرجة أنها أصبحت تتوهج في هذا الظلام الدامس, الأمر الذي يجعل المرء لا يستطيع تفحص يديه من قدميه!!!

فجأة وإذا بإحدى البنايات العالية تسقط وتتهاوى على رؤوس الناس الزاحفين، تلاها سقوط أبنية أخرى وكأنها تعرضت إلى هزات من الزلازل أو تسونامي عظيم ضرب هذه الجزيرة الآمنة، ربما ذلك... أهي النهاية.....!!

صياح، وبكاء، ونحيب، كبار وصغار, نسوة ورجال، الكل يمضي لا يعرف الواحد منهم أين وجهته، بل يمضون ويتكدسون بعضهم فوق بعض، أهي النهاية، لا أعرف حقاً...

يركضون بما أتوا من قوة نحو الأمام دون وجل ودون التفات، أهناك شيء ما يلاحقهم أم أنهم أصبحوا كالمحركات الصامتة دون قلوب، وكأن شيئاً يتبَّعهم، خيل لي أنه شبح أو كائن ما.........!!!

فجأة يجد صابر نفسه أو يخيل له؟

يسير وحيداً ليتخطى الجموع، ويرى نفسه وإذا به يقف أمام الكائن الحديدي نفسه، نعم فهو الكائن ذاته الذي أقله في رحلته الخيالية تلك في أعالي الأشجار العظيمة. وما زلت وأنا كذلك فإذا بي أجد نفسي مرة أخرى في جوف هذا العملاق الحديدي!!

هل أنا يخيل لي ذلك، أم لا؟

ولكن أجد نفسي وكأنني مضطجع على الكرسي ذاته، وإذا أنا كذلك فإذا بها رجفة تصعقني، فالكائن بدأ بالإقلاع نحو الأعلى، وبمجرد إقلاعه ظل هكذا يسير لفترة أطول مما كنت أعتقد، وأنا وحيد لا أستطع أن أتحرك، يا رب ما هذه اللعنة؟

وكأنني في رحلة بعيدة أنتقل فيها بين نجوم الليل...!!
هل أصابتني مرة أخرى تلك الشوكة التي توخز وتحاول أن تسيطر على العصب، قال يهمس لنفسه، ويتذكر تلك الرقيقة المزروعة في ذراعه، ويحاول أن يتحسسها, إن كانت موجودة أم لا؟
يحاول تحسسها نعم، متسائلاً في نفسه، ربما لا تزال موجودة، هل لاتزال هذه موجودة؟
مرت ساعات منذ أن خرجت من منزلي, وأنا في جولة داخل مركبة فضائية تسير بسرعة متناهية محطمة كل الأزمنة والجدران كأننا قد أصبحنا في عصر النانو الكربوني, العصر الذي يختصر المسافات بأقل الدقائق بل بأقل الثواني, اختلج في داخلي أصوات الناس الرجفين، ربما بعضهم أصوات أصدقائي الذين نسيت أسماءهم، فأنا لم أعد أتذكر سوى صوت واحد فقط كان أشبه ما يكون بصوت (محمد) ذلك الصديق والرفيق الأخير، قبل أن أعرف منه عن تلك الأشياء المهمة التي حدثت لي, فالوقت لم يسنح لي أن أستطلع أو أفهم منه ما أراد قوله, وإذا أنا هكذا مرت بي لحظات كثيرة يبدو لي فيها الزمكان, وهو أشبه ما يكون بشخص قد فارق الدنيا وطال رقوده لسنوات من الصمت الرهيب دون أن يعرف أنه ما زال فيه عرق ينبض, لقد اختفى صوتي مع صوت محركات المركبة العلمية الجامحة واختفى معه منطقي السليم..!!
فجأة تظهر أمامي شاشة عملاقة تتجاوز أبعاد الأرض التي أعرفها، تبدو وكأنها روبوتات عظيمة وسوف تجيب عن أسئلتي التي طالما راودتني وخصوصاً ما يتعلق منها ببحثي العلمي، أسئلة ما برحت أفكر فيها حتى في عقلي الباطن لأنها تمثل أسراراً عظيمة لي, بل هي أسرار وملك للوطن، فهي تنقل عني الدوافع والنوايا، بل حتى الآهات التي أتنهد بها، فقد وجدتها حاضرة أمامي، قبل أن أكبح جماحي متظاهراً بأنني غير مهتم بما يحدث ازداد رعبي لأني كنت أشاهد شريطاً مصوراً للناس الذين كنت معهم قبل قليل في زمن الأرض التي أعرف وأعيش...!!!
كنت أشاهدهم وكأنهم روبوتات مبرمجين يسيرون نحو حافة جبل عظيم، يتسع الوادي الواقع أسفله تارة كما يبدو لي أنه يضيق في أماكن أخرى تارة, شاهدتهم وهم يتهاوون منه كأنهم أوراق شجر يابس ويتناثرون في الهواء، كما رأيت شيئاً عظيماً ذكرني بقصة أولئك الذين كانوا يتلقون رجوماً من السماء, أولئك الذين خالفوا الرب، وخالفونا في كل شيء, على الرغم من أنهم أناس نعرفهم بسيماهم ونعرف أين يكونون وبمَ يفكرون...!!!
وأنا كذلك والخوف يعتريني تجمد الدم في عروقي، فلم يعد أي صوت يصدر عني إلا جعلته سجيناً يقبع في قصبتي، أتوقف أمامه، أهو شخص, هل هو آدمي أم لا, كأننا نسير في فضاء سبيراني Cyberspace كما يطلق عليه.
لا أعرف، لقد كان كثّ الشعر، أبيض البشرة ينظر إليّ باشمئزاز واضح وهو غارق يتأملني من أعلى إلى دون ذلك.
بدا لي وكأنه يخاطب نفسه ويتحدث مع ذاته..
وفهمت ما يريد...
وما كاد ينطق حتى أجبته أنا.... وكانت أول مرة أتبرمج معه بالرغم من جهلي به... نعم أنت: (المستر جورج).
أنا جورج...!!!
نعم، كيف عرفت؟

ضحك مازحاً، أحسنت لقد اجتزت الامتحان، لقد كنت معنا في مهمة مرعبة حقاً, حيث نعيش ثورة علمية هائلة، كان همنا الأوحد كيف نراك هكذا...
أنا السيد جورج من مشاة البحرية، ألا تعرف ماذا تفعل هنا في هذه الحوامة؟
تلعثمت في إجابتي.....
صابر: نعم أعرف بعض الشيء، أعرف أنني.... حينها صمت لوهلة, فيما هو يحاول أن يقول شيئاً، كأن لساني قد ربط، لم أستطع أو يستطع هو كذلك أن ينطق بشيء, أو تكملة ما يريده من استفسار!!
ولكن تداركت نفسي وبادرته بالسؤال مرة أخرى:
عن أي تجربة تتحدث؟؟ قد شاهدت أشياء غريبة، وتكلمت مع العديد من الغرباء، وكثير منهم كانوا يتشابهون فيما بينهم، ومنهم يشبهني أنا...!!
لم أكن مسخاً
نعم يشبهوني.... شكلاً، وكذلك فكراً وتصرفاً!!
وقد خيل لي أني أعرف لغاتهم....!!!!
ثم بادرته بسؤال آخر:
عن أي تجربة تتحدث، أخبرني؟
أرجوك، تكلم...
أجابني وهو يبتسم بارتياح واضح، فالابتسام يكون أحياناً وسيلة للتعايش الإنساني وربما يعتبر أفضل وسيلة، فقد يكون المرء سباقاً بالابتسامة, فهي حينئذ تعني الكثير لدى الآخرين، وربما تعبر أيضاً عن مبادرة ما, وربما تكون فاتحة لما بعدها من كلام:
قلت لك أنا (جورج. ف. ويليم)، جنرال وقائد من ضباط مشاة البحرية الأمريكية.
رادفاً الكلام وبسرعة، وأنت كيف وصلت إلى هنا؟
أنا لا أعرف حقاً كيف وصلت إلى هنا, ولا أعرف من الذي أتى بي إلى هنا، ولكن على ما يبدو أنهم كانوا يريدون شيئاً ما, مني تحديداً، فلماذا هذا الإصرار والتواصل معي؟
بهذه النبرة الحادة أجبت مفكراً بتلك الابتسامة التي خُدعت بها....!!
ضحك بقهقهة مجلجلة وعالية, حسناً أنت هنا الآن، نعم أنت هنا، وهذا هو الأهم بالنسبة إلينا, كررها عدة مرات.
لا عليك ستكون فأراً جيداً ضمن مجموعة الفئران الجيدة.....!!
ضحك، ثم ذهب بعد أن رمقني بنظرة بائسة..!! جعلتني أغرق في تساؤلاتي الكثيرة، فقد كانت ثمة أشياء انتابتني..!!!

مختبرات جامعة جون هوبكنز........

وهو هكذا... وكأنه يدور بين قطبي رحى من الخوف والهلع، بين التجربة والاختبار، وبين الخطأ والصواب، في مختبرات أعدت لتعمل ليل نهار على خدمة البشرية، ما لبثت وأن تحولت إلى غير ذلك، وليكن صابر وغيره أحد هؤلاء الذي وقع عليهم الاختبار والاختيار, بوشاية أحدهم ولهذا الأمر تحديداً.........

يتراكضان، كامبل وسارة مساعدته، هذه أسماؤهما وهما يعملان في الوكالة، ثم يتجهان نحو غرفة معتمة جداً تبدو كأنها قاعة كبيرة، مجهزة جيداً بمجموعة من أجهزة الصوت وأجهزة أخرى دقيقة جداً كأنها روبوتات تعمل بطاقة غير محددة ويبدو أنها تسير بسرعة فائقة وفق منهج اللازمن، تتراقص بأضواء خافتة هنا وهناك.

يدخل أحدهم..

سيدي: لقد وصلت الحوامة العملاقة اكس 129 إلى الهدف المحدد لها قبل دقائق بزمن الأرض إلى تلك الأكوان البعيدة من كوكبنا، الأرض.

كامبل: حسناً، وهل تم تفريغ حمولتها بالكامل؟

المخاطب: نعم، ولكن هناك يا سيدي.... أمر ما قد حدث..!!

أمر يدعو إلى القلق والاستفهام... لم نجد في قاعدة البيانات أي تفاصيل عنه سيدي...؟!

كامبل، وقف منتصباً وكأنه يشعر بمزيد من القلق: ما الذي تقول؟

وكررها مرة أخرى، ما الذي تقول؟

وبدهشته المعهودة حين يستفز الإنسان بخبر ما، ماذا هناك؟

يحدث شيء ما يا سيدي, تكلم هيا؟؟

تكلم، تكلم، عادها لأكثر من مرة وهو يكررها وبسرعة... ازداد قلقه وفيما يوجه الكلام إلى مساعدته سارة، وحاله يقول لها ما الذي حدث يا سارة؟ استفهمي لنا الأمر؟

سيدي:

لقد وجدنا أن بعضاً من الفئران التي حملناها معنا في الرحلة المختبرية، قد تحولت إلى مادة هلامية متحجرة، بدأت تكبر وتسبب لنا مشكلات وخصوصاً مشكلة القدرة على التنفس، كما أن كثيراً من المحاربين والخاضعين للتجربة والاختبار المختبري، قد فقدوا الوعي وربما مات بعضهم، كذلك هناك مشكلة صعوبة دفنهم في تلك البقاع، فقد امتلأت بطونهم قيحاً, مما جعل المركبة في هياج..!!!

كامبل:

بسرعة استدعوا الطاقم الطبي إلى هنا فوراً، هيا، بسرعة هيا.

رويس كبير خبراء الطب البيولوجي في مختبرات الجامعة، يعود أصله إلى جذور أوربية، هاجر والداه منذ نهاية القرن التاسع عشر, كثيراً ما كان يميل إلى التحرر، ويعارض العديد من الاختبارات الشاذة, وهو متدين بشكل واضح:

نعم سيدي، وعبر دائرة تلفزيونية مغلقة وبوسائل من المحاكاة اللا مرئية تحادثا, باعتباري رئيس لجنة خبراء الطب البيولوجي والبحث المختبري الفائق في مختبرات جامعة جون هوبكنز, سألتحق

فوراً وفي الحال إلى مقصورة القيادة. ثم ما لبث أن أطلق العنان إلى منظومة الاستطلاع الرقمي فائقة السرعة للانطلاق نحو المحطة المنكوبة لفك شفرة الخطأ.
يبدو أنه كان واثقاً مما يقول، ربما هذا صحيح، فهو الأقدر على تتبع نتائج الاختبارات الجرثومية التي أشرف عليها منذ نهاية الحرب الباردة، ومنذ انهيار ذلك الجدار العلمي بين شطري أوربا.
ولكنه استرسل في الكلام قائلاً:
سيدي ربما نكون قد دخلنا مجالاً غير مجالنا المحدد لنا فضائياً ومغناطيسياً لإجراء هذه التجارب، وهذا أمر تعرفه أكثر مني، فكثير من المعلومات مغيبة عني، أو ربما يكون العنصر المتاح لنا غير قادر على الاستجابة, وربما أيضا يكون كما يبدو لي مفاجأة من المفاجآت قد حدثت فعلاً، وهي عادة تحدث مع أكثر الأبحاث العلمية المتقدمة!!
إن كثيراً من نتائج الأبحاث تجعلنا مشدوهين عاجزين بالإتيان بالسبب الرئيس, خصوصاً عندما تكون هناك نتائج عرضية غير منظورة أو غير متوقعة الحدوث رغم استحضار كافة الظروف الطبيعية والاستثنائية؟؟؟
وظل هكذا في تبرير مستمر لما يحدث، وهو يتمتم في داخله, «يظهر إننا تدخلنا كثيراً ومضينا في التجارب», وكأننا كمن يلهو في حقول من ثمار الكمثرى البرية أو كما تلهو الطيور وقت الجني، إننا تدخلنا بأمور ما كان لنا أن نتدخل فيها إطلاقاً..!!!
ثم عاود الكلام، وهو مشغول مع مجموعة من مساعديه من أطباء وخبراء الحرب الجرثومية، ليقول موجهاً الكلام إليهم:
إن هناك نسبة من الخطأ، ولكن يبدو أن نسبة الأخطاء هذه المرة، أكبر من تلك النسبة المسموح بها دون أن نعرف سبباً منطقياً لذلك..!!
وفيما هو هكذا يحاول أن يبرر ما حصل، كانت هناك جلجلة من الأصوات، في غرفة الكابتن رويس، الكل يتجادلون حول الأمر الذي حدث, أحدهم قال:
إننا فعلاً أصبحنا خارج السيطرة، وربما سيكون الأمر أبعد من ذلك، وربما وبأمل قليل وغير مؤكد، يكون ذلك أمراً محدود التأثير. وفيما هم كذلك بدأوا يقفزون نحو أماكنهم وكأنهم في حفل موسيقي جنائزي.
ماذا حدث؟؟ بدا, وكأنهم يتهامسون فيما بينهم.
جورج:
سيدي المبجل، لقد حدث أمر غريب, فقد تطورت أبحاثنا على بعض تلك الفئران المهجنة بالمادة التي تعرف، ثم ما لبثت أن تحولت إلى ما يشبه الكرات الهلامية المتحجرة، وهي تتقافز فوق رؤوسنا ولا نقوى على الإمساك بها، لقد أصبحت حرة الحركة, فما نكاد نمسك بإحداها إلا وتسحب ماسكها نحو الأرض ليرتطم بها بشدة على الرغم من قوة محاربينا، إننا نعيش كابوساً حقيقياً يا سيدي...!!
كما سببت فزعاً للأسرى الذين نهيئهم للتجربة القادمة، ممن نريد أن نخضعهم إلى الفحص البيولوجي السري.
كما أن المصيبة الأكثر إيلاماً، إننا فقدنا الكثير منهم، لا حباً فيهم، ولكن لأننا عاجزون عن الإتيان بغيرهم، إذ يبدو أن الاختبارات الجرثومية قد وصلت فيها الجراثيم المهجنة إلى مرحلة من الهرم, غريب ما يحدث، فهي تتوجه بشراهة نحو الكثير من فئراننا، سيدي لقد أصبح الأمر لا يحتمل.

لقد فقدنا الكثير منهم...!!
لم يتبقَ لنا سوى القليل منهم، ومنهم هذا الشخص...
تعال إلى هنا.... من تكون أنت؟
أنا أدعى صابر، أتذكر فقط أني من منطقة يقال لها الشرق الأوسط
لم أعرف من أين أنا؟ وكيف وصلت إلى هنا؟
أتذكر أن مدينتي كانت مدينة جميلة يقال لها بيروت حيث أقيم وأدرس في إحدى جامعاتها.
ولكني دائماً ما أشعر أن ذراعي اليسرى كثيراً ما تؤلمني، وخصوصاً عندما أرغب بالتفكير، ولكني لم أعد أكترث بذلك, إني متكرر بصور متعددة مني، لا أتذكر سوى إننا أربعون صابراً، أنا شخص مكون من أربعين صورة مكررة.
كامبل:
وهو منشغل بأمر ما هناك في الجهة المقابلة من القاعة، وإذا به يصيح:
قيدوه، إنه خطر، قيدوه بأكثر من سلسلة حديدية الكترونية، واحقنوه بالمزيد من الرقائق، ثم اربطوه بكبل الحاسوب الأرضي، لنرى وننظر ما في جوفه، لقد أصبح يتحكم في تحريك الأشياء، وللتذكير نحن كنا نريده بلا هوية وبلا اسم، لا يعرف من يكون وأين كان؟
يبدو أنه خطأ ما في الاستنساخ، أكيد هو خطا فادح، رويس أين رويس, سارة ابحثوا لي عن رويس، ماذا فعل، ابحثوا لي في سجله الجنائي، فإنني بدأت أشك به، من هو؟ ما جذوره؟ ابحثوا عن ذلك الأمر، لقد فهمت شيئاً ما أتمنى أن لا يكون صحيحاً، فعلى الرغم من تلك الرقائق التي زرعناها, وتجاربنا التي راعينا فيها الكثير، وبمساعدة عظيمة من أولئك الآخرين الذين زرعناهم كما زرعنا هذه الرقائق في مكان ما، نحن لا نتحدث عن سحر أو ترانيم أو حتى نتحدث عن مزامير10 سيدنا وسيدهم المعظم، حين يقول في سفره العظيم:
أنت يا ربّ إله الجنود، كلّ غادر أثيم لا ترحم......
نعم نحن غير متخصصين في علوم البيولوجي أو علوم الجراثيم والاستنساخ الخبيث، ولكنا نفهم علومنا، نحن الذين ترعرعنا في كنف الوكالة11 العتيدة، نفهم ما يدور بيننا وكذلك نستطلع ما يدور في المحيط الخارجي خلف هذه الأبواب المقفلة والموصدة، إن كل همنا ينطلق نحو هدف واحد لا نحيد عنه ألا وهو السيطرة المطلقة، نعم المطلقة لا غير، حتى وإن كلفنا هذا الأمر الكثير من الأموال والكثير من التضحيات بل والكثير من الكفر... أحياناً!
فنحن جنود أوفياء، لما نسير تحت أمره، أمر من يطلب ذلك منا أمر البلوغ لا غير، ونحن نسير نحو نظريتين متضادتين من قوى الفوضى والجنون بحيث ننجذب نحوهما حتى بزوغ الثورة والثروة المميتة والمسيطرة، نريد أن نخالف كل النبوءات، نبوءات الكهنة وغير الكهنة في ذلك الأمر الخطير الذي يتحدثون فيه.

9 - محطة فضائية علمية تابعة للحكومة العالمية, من تخيلات المؤلف. أعدت لتكون واحدة من ١٢ موقعاً من مواقع التخصيب وتهجين خلايا جذعية مميتة للإنسان.
10 - مزامير داوود عليه السلام، آتاه الله سبحانه في الأربعين من العمر النبوّة مع المُلك؛ فدعا قومه بني إسرائيل إلى تطبيق الشريعة التي أنزلت عليه، وهي شريعة التوراة، والإيمان بأن الله هو ربّ هذا الكون أجمع، وأنّه الذي خلقه وأبدع في خلقه، ولا أحد يستحقّ العبادة سواه سبحانه، وأنزل

الله سبحانه على داوود الزبور، وفيه مواعظ، وأذكار، وعِبر، ورقائق، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب.

11 - الوكالة, تعبير عن جهاز خطير في الحكومة العالمية، يتحكم بل يسيطر على الكثير من مفاصلها, بحسب تخيلات المؤلف.

المتحولون.........
وهكذا تستمر الأبحاث والاختبارات غير المشروعة، كما يستمر تجنيد الفئران البشرية للاختبار في مكان ما من هذا الكون الافتراضي, مازالت تلك التجارب تستهدف العديد من الخانعين الخاضعين لها، بقوة المال وأدوات الترغيب والترهيب, ومنهم كان صابر الذي يخضع للاختبارات عالية الأثر بشكل متواصل وبشتى الوسائل......
حين كان هناك في جزيرة غوانغدونغ، فجأة ظهرت شاشة كبيرة داخل جسم صابر، فإذا به يركض ويحاول أن ينتزع رداءه من شدة الحر القائظ، ويحاول أن يجري نحو البحر، لكنه لا يقوى على فعل ذلك بسبب ما ينتابه من الخوف والهلع، أو يحاول أن يربط نفسه بشجرة ما، ولسان حاله يقول:
ما زلت أفكر بتلك الأفكار التي لم تتغير منذ الآلاف بل منذ مئات الآلاف من السنوات، ولعل ما نعيش فيه من متغيرات لا تهمني بقدر ما يهمني أنني إنسان أحيا وأعيش ولي قدر محدد من الزمن أعيش فيه ومفروض أن أتمتع فيه وأمارس حياتي الطبيعية، نعم ربما أشترك مع الآخرين في تقبلنا للقضاء وللقدر، نحن دائماً ما تغلب عندنا العاطفة على العقل, كما أن برمجة العقل لم تعد تكفي لإجبار العواطف على التخلي عن قدرتها على التفكير، نعم فربما هذا سيعود عليها بقليل من الفهم إذا ما جعلها العقل تتوقف برهة من الزمن، ويتناسى معها القلب أو الفؤاد تلك اللحظات الجميلة أو القاسية من أعمارنا التي فاتت ورحلت عنا بكثير من الألم والأمل.
هنا بدأ يتذكر شيئاً ما، طالما تكرر ذلك الأمر، وتذكر تلك الشريحة الخبيثة التي لم تعد تعمل كما خيل لهم أو أريد لها كذلك...!!
بدأ يصرخ بصوت عال: أنهم القتلة؟؟؟؟
يطفئ الجهاز....
جورج وهو يحاول أن يهدّئ من روعه بمساعدة آخرين معه في مختبرات الحوامة التي طالما كانت تحلق في أجواء تلك الجزيرة والتي ترتبط بمختبرات أرضية مشيدة في أماكن أخرى.
لم يستطع فعل شيء، فقد بدأ يتحول إلى مادة هلامية.... غير تلك التي ظهرت أجساد آخرين فيها.
جورج.... قائلاً لأحد مرافقيه، ويدعى وليم هنري:
هنري أسرع إلى هنا، واجلب معك مادة وازرقها في رأسه ليعود إلى رشده, يبدو أنه خائن...!!
في هذه اللحظة...!!
ظهرت ندب حمراء متفجرة بمزيج من سائل مخاطي من السوائل المقززة تسيل من داخله.
اذهبوا جميعاً وألقوا به من المركبة إلى الأرض، تخلصوا منه....!!!
إنه الآن جاهز للعمل!!
الجميع مذهول، أي عمل هو جاهز له.....!!!! وهو هكذا بهذه الحال المزرية.
في تلك الأثناء وفي مكان آخر من العالم، يدخل أحدهم وكأنه واحد منهم، يبدو أنه من الوكالة، يحمل بيده قرص مدمج ومجموعة أوراق، يضعها على المكتب البيضاوي، كانت في ظرف كتب عليه فائق السرعة وخطير جداً ومحدود التداول، ثم يعود أدراجه.

يرن هاتف السير جورج ويليام, يقول: نعم سيدي الرئيس، نعم لقد فهمت الآن! نعم، فالأمر كما يبدو كان واضحاً لي منذ البداية!!
وأنا طالما حذرت منه، ولكن بعد فوات الأوان.
حقيقة لم أدهش لما تقول سيدي الرئيس...
لقد توضحت لي الآن أمور كثيرة وبشكل لا يقبل لبساً ما، فقد لا يكون هناك قيمة للشائعات والأقاويل اليوم, ودائماً ما نجد أنها أمور لم يعد لها مكان على جدول أعمالي، نعم لقد تحقق ما كنت أفكر فيه دائماً وأصبو إليه، وكنا عندما نتحدث ونركز تفكيرنا في المتحولين ممن نريد وما لا نريد ونرغب, نفاجأ أو نتفاجأ دائماً بغير ذلك، ولكن الظاهر أن المتحولين أنفسهم لا يزالون في داخلنا, تربطهم بالربّ وشائج قوية ومؤلمة لنا، لا نقوى عليها, لا نقوى على قطعها.
سيدي الرئيس: أما الذين يشذون عن قاعدتنا، فتعرف سيدي، ما مصيرهم، إنه مصير الكثيرين ممن كانوا يعتدّون بأنفسهم، في تلك البلاد البعيدة12، يتخيلون أنهم بمأمن عن قوتنا الباطشة، وهم يقبعون كالجرذان، بل نحن من يجعلهم يبدون كذلك.
والذين كانوا يتبخترون على شعوبهم الجاهلة وكلّ غادر أثيم منهم لا ترحم، لابد من أن نعامله بقوتنا المفرطة، ونزيدهم جهلاً وقتلاً وتحولاً نحو المجهول.
وهنا بدأ يضحك بجلجلة واضحة، ضحك وابتسام، ابتسام ملؤه الخبث، البسمة التي غابت عن محياه منذ وقت ليس بالقليل، وأردف قائلاً:
سيدي الرئيس: إن من يشذ عن قاعدتنا, لا يجب أن يحيا بل لا نجعله يحيا, ولكي لا يطول بقاؤهم على الأرض التي نريد لابد من القتل والتدمير، فنحن نمتلك ناصية العلم اليوم، نجعل منه طوع أيدينا كيف نشاء أو نحوله إلى الهدف الذي نريد ونرغب، نعم وفي أي مجال نريد، كذلك الأهم لنا جعله يمضي بالشكل الذي نريد. يجب أن يفرح السادة المبجلون في الداخل والخارج، وبالنسبة إلينا أمر إرضائهم هو الأهم، فنحن لا نزال الأقوى، لكننا في أوقات كثيرة لا نود الاعتراف بذلك، نحن لا نريد سوى أن نجعل كل شيء محلل لنا, ومحرم على غيرنا، فالأرض محرمة على غيرنا لا علينا، ليس بوسعنا أن ننتظر قرناً آخر من الزمن أو ما يزيد حتى نعيد ترتيب أوضاع الأرض، إذ لا ينقصنا شيء مما كان لدى الإمبراطوريات الغابرة، نحن الأحق في تغيير الخطوط، وإعادة رسم حدود الأرض ورسم التاريخ والجغرافيا وكذلك الفضاء، من جديد.
سيدي أنت تعرف إننا لا نهادن أو نتهاون مع أنفسنا، بل نحن نسير بهدي مزمورنا التاسع والعشرين، حين يقول...
حوِّل مياههم إلى دم، واقتل أسماكهم...
في حضارتنا هذه، هناك سهمان متضادان أحدهما لا يلتقي مع الآخر، ولكن الغريب في الأمر, أنهما قد يكونان متوازيين، فنحن من نصنع المشكلات ونحن من نسعى إلى حلها، ولكن أي حل، إننا نرغب بل ونسعى لنكون ممن يرقص ويفرح بالطبيعة، ونحن كذلك ممن يقتلها، الأمر سيان عندنا.

12 - البلاد البعيدة, تلك البلدان التي احتلتها الحكومة العالمية, أو التي تخضع لحكم هشٍّ في حقيقته، فالحكومة العالمية هي الحاكم الفعلي لها, بحسب تخيلات المؤلف.

عالم آخر......

يبدو أن الأمر لم يكن بتلك السهولة أو تلك الانسيابية في تحقيق مآرب الشيطان، فطالما وُجد الشر وجد بالمقابل بصيص من الخير، حتى وإن كان بعد حين، وقد يظهر من بين جوقة الشر نفسها، وهو أمر أخطر وأعمق أثراً. ووفق ذلك وتلك التغييرات والتطورات اللاحقة لها، لا يزال صابر مرغماً على الدخول إلى عوالم أخرى غير تلك التي يعرفها أو يعمل في نطاقها المعروف، وإذا بشيء عظيم يحدث، فقد انتقل مركز الثقل والزمن نحو تلك الأرض الخالدة الواقعة في ذلك المكان الذي يحن إليه، في الشرق الأوسط كما يحلو لهم أن يسموه أو يطلقوا عليه، تلك التسمية البديلة لأرض الحضارة, فقد أثبتت بل آلت البوصلة إلا أن تصحح مسارها نحو موطنها، وإذا به يجد....

وإذا به يجد نفسه مرغماً على الركض والجري بأسرع مما يمكن وهو يسير ويحاول الوصول نحو شيء ما، لكنه وفي اللحظة ذاتها يحاول أن يجد أي شخص في طريقه، إنه يحاول أن يلتصق بأي شيء، وهو بهذا الحال، يحاول أن يجعل من العالم الذي يعيش, عالماً مرئياً له وبكل التفاصيل الدقيقة مهما كانت أو صغرت، وهو دائماً ما يتذكر جملة عظيمة للفيلسوف الألماني الذي اشتهر بالوضوح الفلسفي والتشاؤم ويرددها.

هذا الفيلسوف هو آرثر شوبنهاور13 حين يقول:

«كلنا يجعل من حدود رؤيته حدوداً للعالم بأسره»

ولكن لسخرية الأقدار، فإنه كثيراً ما يجد نفسه داخل جوف عميق لا يقوى أن يخرج منه بل كأنه التصق به بشكل كبير, فالجدران يبدو أنها ملساء, بما لا يكفي لإحداث تشققات فيها أو ما شابه ذلك، لغرض تسلقها، لا توجد أي وسيلة للخروج، كما أن عقله لا يمكن له أن يتحرك دون وجود دافع أو مساعد ليحركه.

كل سكان هذا العالم لم يعودوا موجودين، كما أن الآخرين ربما يتغيبون داخل الكهوف والمساكن الوثيرة، أين هم، أظن أني اقتربت منهم كثيراً؟...

أين هم؟

لقد احتجت إلى حضن تلك الأمّ الرائعة، أين هي الآن؟

أتذكر كيف كانت تربت على كتفي حين أخطئ، وتنتظر مني شيئاً من الاعتذار، لم أبادرها الإحساس ذاته، حين كنت أمثّل في بعض الأحيان بل في كثير من الأحيان...

أين هم؟

هل تحتّم عليّ أن أكون هنا إلى ما لانهاية، يا إلهي..!!

هل هذا شيء, مخطط لي، أن أكون هنا بدافع أحدهم لأخضع لرغبته الرعناء في التجربة.

لحظة، وإذا بأصوات عالية تنشقّ الأسماع لها طواعية،

فيما تندفع نحوي أشبه ما تكون بقبائل من النمل الأبيض، إنها في طريقها إلي,

يا إلهي!!

أحاول التخلص منها بأي وسيلة، كدت كما خيل لي أن أتقيأ، ثم بدأت أسعل بشدة، وكأن الروح قد آن لها الخروج من هذا الجسد المترهل.

وإذ أنا هكذا، بدا لي أن ألسنتهم بدأت تلعقني، وإذا بسائل ينفذ إلى داخلي.

يا إلهي... إنها ملايين من النمل...!!
وفجأة ترعد السماء ويظهر عمود عظيم من البريق، لقد بدأت تلك الرقيقة تومض لي بضوء واضح الرؤية، وكأنها تواصلت مع البرق رقمياً.
يا إلهي.. إنها الأمطار, ربما تكون الحل الإلهي المنتظر, إنها تنهمر وتتساقط بشدة، وحين أخذ المطر يزداد انهماراً، وتتراقص أمامه قطرات من المطر الأسود وتتساقط عليه كأنها حمم من السماء..!!!
حين ذاك، بدأ يتصاعد مستوى الحفرة، فحاول أن ينجو بنفسه من الغرق، من شدة المياه التي تجمعت في المكان.
إنها كما يبدو, كأنها الشمس التي تغرب في المساء وتبزغ مجدداً في الصباح، بالإضافة إلى أنها رمز الروح الخالدة في رحلتها الأبدية بعد الموت.
ما هي إلا مسألة وقت فحسب, فقد حدث ما لم يكن بالحسبان، حدث شيء كبير وعظيم, ومن المسلم به سأكون في خبر كان......!!
وإذا به ما بين التصديق والتجهيل المتعمد، وبينما هو هكذا وجد نفسه فجأة وسط مجرة من الأقمار البعيدة داخل النظام الشمسي وكأن طوافات من الهواء الحار تدفعه دفعاً, كما بدا له أنه يسير في عالم متناسق مزيج من الحقيقة والخيال, حين ذاك بدأ يتساءل:
هل هو فعلاً ذلك الكائن الذي يعيش في تلك البقعة المنسية من أرض بابل، فقد تراءت له تلك الرؤيا وتلك البلاد أول مرة منذ أمد بعيد....!!
ما زلت أتذكر أطلال الملك نبوخذ نصر، كما أتذكر أيضاً عمارة سرجون العظيم، وتلك المسلة العظيمة لذلك العادل حمورابي، هل أتذكرهم كما يتذكرهم طلاب علوم التاريخ...!!
هل أنا من الجنس البشري، أم أنا كائن آخر؟
هل أنا مركّب من خلايا وأعصاب وأوردة؟
وهل أنا مجموعة من تلك الأحماض الأمينية التي ما زاد منها أصبح خطيراً، أم أني أصبحت مادة غير معروفة؟
فما زلت لا أتذكر سوى أنني عبارة عن مركب محاط بمادة هلامية متحجرة، كما لم أعد أتذكر في كنف أي من الناس أعيش، ومن هم عائلتي وأبنائي، وهل كنت متزوجاً أم لا...؟
ولم أتذكر أني كنت ممن يحمل ذلك الفيروس المزروع في تلك الشريحة التي غزت العالم واختطفت البشرية على حين غرة, فنحن كُتب علينا أن نكون هكذا ناقلاً للبعوض لا غير، كأننا أصبحنا روبوتات تطير وتقفز وتلقح ملايين الناس بالقتل والهزيمة دون أدنى رحمة، إننا نعيش في عصر الاستشعار اللا أخلاقي دون أدنى شك؟!!
لكنها كانت بداية النهاية لحكم العروش البائدة سريعاً......

13 - ارتور أو آرثر شوبنهاور (بالألمانية): Arthur Schopenhauer) (1788 – 1860م)، فيلسوف ألماني، معروف بفلسفته التشاؤمية، فكل ما في الحياة ما هو إلا شر مطلق، وقد بجّل العدم، وعرف بكتاب العالم إرادة وفكرة، أو العالم إرادة في بعض الترجمات الأخرى، والذي سطر فيه فلسفته المثالية التي يربط فيها بين الإرادة والعقل، فيرى أن العقل أداة بيد الإرادة وتابع لها. ملحد وبعيد كل البعد عن الروح القدس الذي أشار إليه في بعض كتاباته.

أرض بابل............
نعم إنها الأرض الموعودة في كتبهم وأساطيرهم، إنها الرؤية التي طالما كنت كما كان الكثير من أقراني نحلم أن تتحقق أو نحلم بعودتها، أو بالعودة إليها، فأكيد سيكون الأمر هكذا يوماً ما، ومتاحاً على أقل تقدير لي، ولغيري أيضاً، ربما المسألة مسالة وقت لا غير، فعجلة الماضي لابد أن تعود، بل ستعود رغم كل شيء.. رغم اليأس ورغم الخوف ورغم التخلف والجبروت ورغم الخيانة، لابد أن يعود مركز الثقل إلى مكانه الصحيح، لابد أن يعود إلى تلك القفار التي كثيراً ما أذلت من الأقرباء قبل الغرباء، ولكن للتأريخ دائماً كما يقال صولة، وحدث عظيم لابد أن يتحقق، يكتب تلك الكلمات في دفتر ذكرياته المتخم بالآمال.
بينما هو كذلك، يحاول عبد الله جاهداً أن يصل صباحاً إلى حقله الصغير الواقع على حافات قريبة من تلك التلال المحيطة بهذه المدينة المنسية، كما هي تلكم المدينة التي لا تزال في مخيلة المحتلين أو المنهزمين من الأسرى، وكيف كانوا ولا يزالون يطمحون أن يجعلوا منها تلك المرأة الجميلة والبائسة الممددة على فراش الرذيلة، فهم يحاولون دائماً اغتصابها وبأي ثمن ودون أدنى رحمة، المدينة التي كانت أكثر المدن عظمة في التاريخ وأغناها بل وأجملها. وهو كذلك يجر أقدامه ويعود بها إلى سنوات عمره المنهكة بتعب الماضي ومآسيه الحزينة، فإذا به ينظر إلى الأرض حوله، ويبدو أن قطعة منها قد تحولت إلى فجوة كبيرة تتحرك داخلها مجموعة عظيمة من النمل الأبيض، ويبدو أنها عاجزة عن الخروج إلى عالم آخر.
يركض خائفاً يحاول الوصول إلى أقرب قرية إلى أرضه، يحاول أن يجد أحداً من سكانها، ولكن دون جدوى!!
فالظاهر أن هذه القرية قد أصبحت خاوية من أهلها، ربما حدث فيها أمر جلل..!!
ربما مات سكانها أو سافروا أو رحلوا، لا أعرف حقاً!
لم يجد جواباً شافياً لثورته الصامتة، إلا أنها الآن تمثل إحدى الحالات والتساؤلات العميقة في تفكيره الآني....
أين أنا من هذا الوضع؟
وكيف لي أن أنجو بنفسي؟
فهو كأي إنسان في الحياة، يرغب أن يتكلم مع أي كان, فلم يعد أبناؤه موجودين، فأحدهم وهو الكبير واسمه عادل قد مات منذ فترة ليست بالبعيدة بذلك الوباء اللعين14, والآخر الذي يدعى عامر قد هاجر إلى تركيا ومنها إلى فرنسا قبل ذلك بسنوات، فيما أصيبت زوجته البائسة بمرض عصاب، أدخلت بسببه مشفى للعلاج النفسي والعصبي، ثم ما لبثت أن لقيت حتفها بعد موت ابنها البكر بسنة....
لم يجد نفسه مضطراً للهروب فحسب، بل كان مضطراً للذهاب إلى أقرب مكان طلباً للنجدة.
حاول الوصول إلى مكان ما, على أن يكون مكاناً آمناً، ولكن إن أراد ذلك فعليه أن يتسلق جداراً عالياً من تلك الجدران الخاوية والمطلة على تلك الأطلال, فجأة وجد نفسه أمام بوابة عظيمة يقف منتصباً على جناحيها حيوانات عملاقة مفترسة، ودون أن يسترسل في السؤال، لابد أنها المدينة التي كان أبنائي يقرأون عنها في كتب التأريخ القديم، وكنا نسمع عنها من أولئك الشيوخ الذين

اعتادوا على زيارة القرى الفقيرة أيام الحصاد في أشهر الصيف أو في أشهر محرم الحرام، الشيوخ هم أولئك (الحكواتيون) كما يطلق عليهم.
أهي بابل, تلك المملكة التي نعرفها من التاريخ؟
وهل هي نفسها تلك المدينة العظيمة الغنية على مر العصور؟
ربما تكون هي وربما لا.
لكن يبدو أنني أعيش في عالم خيالي، فهو لا يبدو إلا كذلك...!!
أم أنا في عالم متغير، وفي لحظة من لحظات الخيال، هل أنا عبد الله بن آدم، أم غيره؟
وهل أنا من بني الإنسان؟
بل من أكون أنا؟ من أكون؟
وبعد تلك التساؤلات، نفض عن نفسه بعض التراب والغبار، وحاول أن يكون أقل عناء حين بدأت خطواته تتثاقل، رغم الخوف والرعب الذي انتابه منذ حين وما زال قابعاً في داخله.....
لقد كانت بابل بالنسبة إلي أعظم تلك الأرض عراقة وعمارة وغناء, ولم يكن لديه إلا أن يلتقط هذه الأفكار الجميلة التي راودته، وفيما هو كذلك كان لسان حاله يقول:
حاولت أن أفتش عن أعز الأشياء التي فارقتها، كما حاولت أن أجد هذه الأشياء التي كنت أبحث عنها، ربما هي التي ستمكنني بعدئذ من عودتي إلى أرضي وناسي ولكن دون جدوى، فقد تغيب عقلي عن التفكير بذلك الأمر، وهو أني ذلك الفلاح قليل التعلم الذي يجهل الكثير.
وهكذا.... وبينما حاول عبد الله ومازال يحاول أن يدخل أرض بابل أرض نبوخذ نصر... وإذا به وهو كذلك يجد نفسه راغباً في الدخول بسرعة دون أن يعرف أن هذا المكان لم يعد مهيأ لذلك التخاطب الروحي، فهو لا يمثل إلا أطلالاً كانت فيما مضى لا أكثر ولا أقل، وعدت.....!!
ها هي أصوات عالية يسمعها من هناك دون أن يرى أحداً، تساءل في نفسه: ما هذه الأصوات، أصوات من؟
كان يتساءل ويجيب نفسه: ربما كانوا حراس دائرة الآثار, وهم من يدعونه للابتعاد عن البوابة, إنه يعزم على الابتعاد دون أدنى شك، فليس له للاستطلاع أكثر من تلك الحدود.
ولكنه أثناء ذلك الأمر, خطر له أن يهمّ بالانصراف, وما كانت أقدامه تبتعد بعض الشيء، إلا وجد نفسه يقف مبهوتاً ساكناً لا يتحرك, فقد حدث شيء عظيم....!!
وفيما هو كذلك, خرج أحدهم، وبدا له أنه ليس من أولئك الحراس الذين يعرفهم ويعرفونه, ما شكله ما خلقته لم يكن ليرسم في مخيلته من هو, وهو بين مصدق ومكذب، أخذ يلوح ويومئ له بأن يدخله، وهو يعطي الأمر للحراس بذلك التوجيه!!
قائلاً لهم: اسمحوا بل افسحوا المجال له للدخول.
فإذا به يجد نفسه وسط تلك الباحة الخارجية...
أهي باحة القصر البابلي الجميل؟
وفيما أنا عليه، أضحيت كأني وسط تلك الجنائن المعلقة، ووسط تلك الشلالات المتلألئة التي تبدو كأنها بلورة مشعة وسط الظلام.......!!

14 - الوباء اللعين- وباء أصاب البشرية عام٢٠٢٠، يقال إن التجارب البيولوجية والجرثومية قد تكون السبب في تفشيه، بحسب رؤية المؤلف.

الجنائن ورياح الجنوب........
إنه يعتبرها واحدة من محاور الخير في وقتها, فقد كان يفكر في حياته التي يحياها, فيجد نفسه مرغماً بل مدعواً إلى الدخول إلى تلك الأيقونة التاريخية الرائعة, ليستطلع تلك الأحداث والممالك والوجوه والذكريات, تخيل تلك الأرواح المفعمة بالحيوية وقوة البأس والجبروت، كما تخيل أولئك الأسرى الغزاة، وهم مكبلون بالسلاسل يعرضون أمام الملك، يحرسهم الجنود المدججون بالسيوف والرماح.
وبينما هو كذلك يفكر بأمر من يكون هؤلاء؟
وكيف لي أن أفهم ويفهمون من أنا، بل كيف أستطيع أن أتكلم معهم؟
وبأي لغة سنتفاهم معاً؟
أعترف، بأنني أشعر بالخوف فعلاً,
سأل نفسه: أ أنا خائف إلى هذه الدرجة حقاً؟
ها هو عبد الله ذلك الفلاح البائس وقد أغمض عينيه وهو يتلفظ ببعض من تلك الكلمات، فقد أوجس منهم خيفة، وبدا الخوف واضحاً على محياه، وإذ به يدخل إلى تلك القاعة التي تتوسط القصر البابلي العالي الجميل بعد أن سُمح له بالولوج إلى داخله العامر، دخل دون أن يفقه من الأمر شيئاً, وإذا به يأخذ مكاناً له في هذا المجلس الكبير، وهو يشعر بحماسة وشغف كبيرين للمعرفة, وفيما هو كذلك وسط تلك الأصوات العذبة خيل له كأنه يشاهد احتفالاً من الاحتفالات الملكية، استعراض أو «كرنفال»، وأصوات تشدو ألحان الموسيقى الملكية الجميلة، وكأنه يجتاز شارع المواكب الملكية متفاخراً، تلك المشاهد جعلته يقول في نفسه، حقاً إنه عالم جميل من الموسيقى والغناء والمرايا البراقة والفرش الوثير، كان حلماً جميلاً لا يرغب بمغادرته!
فجأة وجد نفسه أمام صوت أجش لشخص عملاق ذي أسارير ضاحكة يقف على حافة الحديقة الغنّاء، يسأله:
من أين أتيت؟
ولماذا أنت هنا؟
يحاول جاهداً أن يتلمس العذر لنفسه وبأنه خجل منها, إن اقترب أو كاد أن يقترب أو يدخل قصراً في لحظة ما، دون موافقة صاحبه, وهو كذلك فإذا به يدس يديه في جيب ثيابه ويحاول أن يستخرج شيئاً ما ولكن دون جدوى، فقد كان خاوياً من أي شيء سوى بعض تمرات يابسة من البلح المتيبس، كان كمن يقول لهم إني لم أسرق شيئاً وهذا كل ما لدي، وهي ليست من الثمار التي لديكم، حاول أن يقدمها عربون صداقة إلى الرجل عظيم البنية..
ابتسم الرجل العملاق ونظر إليه نظرة فاحصة، كانت تبدو له كأنها جواب عظيم قد حضر حالاً، وأن توافقاً تاماً قد حصل, وأن الآلهة قد قبلت به سريعاً، نعم ربما حصلت الموافقة، وربما سيُسمح له بأن يدخل في عالم من الملكوت، هذا ما فكر به سريعاً.
رأى بأنه محظوظ حتى هذه اللحظة على الأقل، وأنه من الممكن أن يكون شخصاً مقبولاً هنا, ويستطيع أن يصبح ساكناً جديداً، كما خيل له......!!!

وبين تلك الأماني والخيال، سمعهم يصيحون به، ثم أدخلوه إلى حاجب الملك، وقد أبدوا معه تعاطفاً واضحاً.
سألوه أين يريد أن يكون؟
كان يجهل ما الأمر، فليس له أن يطلب أو يقترح وهو بهذه الحال، وهل عليه أن يختار, ولكنه أراد أن يقول وهو كذلك يستحضر الإجابة ويتمتم: إنه يمتلك أرضاً وهو قانع في زراعتها, ولكن حاجب الملك أخبره بأن أرضه لم تعد تكفي له، كما هي غير كافية ليعيش هنا، فالإنفاق والصرف سيكونان عظيمين عليه، وهذا أمر يتطلب أن يكون غنياً، أو أن يعاود الرجوع، من حيث أتى، وإذا هو إزاء هذا الموقف، يحاول أن يترجل تفاجأ بأحدهم موجهاً نظره إليه، يبدو كأنه كثير الاهتمام به..!!
وفجأة رمقه بنظرة عطف واضحة, بل أكثر من ذلك، فقد عرض عليه على حين غرة شيئاً ما, ومرة أخرى بادره بالقول:
عليك أن تطلب أي شيء آخر، مهما غلا ثمنه......
فأنت أعطيت أثمن ما تملك، دون أن يطلب أحد منك ذلك، أنت أعطيتني تمرات معدودة، والظاهر أنها كل ما تملك، وربما كانت كافية لتعيش بها بضعة أيام.!!
لابد لذلك العبء الذي يثقل كاهلك أن ينتهي, حان الوقت ليكون لك الكثير من الأمل، لأنك تستحق الكثير، ولك أن تطلب ما تريد...
هكذا قال له حاجب الملك....
حاول عبد الله الفلاح أن يجيب وبتردد بالغ، وهو كذلك يحاول أن يربط قلبه بعقله، وإذا به يقتنص النظر باستحياء ما بين الفينة والأخرى للتمتع في معاينة ما يجري حوله بدءاً من أجزاء القاعة الملكية وما يحيط بها من المرايا والأثاث الوثير وكؤوس الشراب بألوانها الجميلة، وإذا به كذلك، وأخذ يتخيل كيف كانت هذه الأرض تحيا حين كانت هذه الحضارة قائمة منذ عهد النمرود بن كنعان، وكيف أضحت في زمن الطوفان العظيم حين كان نفوذه يمتد من بابل العظيمة إلى أنحاء العالم الأخرى, كان ملكاً يهابه الآخرون ولكنه حين بدأ بالتمرد على الرب العظيم انتهى به الأمر، كما يفعل اليوم الآخرون الذين يمتلكون ناصية العلم والألم، يوم رأى ذلك الحلم الذي كان فيه ذلك الكوكب العظيم نذير شؤم على النمرود وكيف كانت النار ترجع سلاماً على سيدنا إبراهيم العظيم..
وهو كذلك يتأمل ذلك السفر الخالد، ويردد في نفسه ما يحفظ من القرآن الكريم وهو يهم بالدخول، بعد البسملة:
﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّـهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّـهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ۗ وَاللَّـهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (القرآن الكريم البقرة 258).
وفيما يفكر عبد الله الفلاح بقوله تعالى، ويحاول أن يفسره، إذا به يجد نفسه جالساً على مائدة فاخرة تجمع فيها من المأكل والمشرب كل ما لذ وطاب.
المائدة جمعته مع الآخرين, حين جلس مع حاجب الملك وحاشيته ونسائه، الأمر الذي جعله يتحاشى النظر إليهم، بل ويخجل منهم، فملبسه ليس لائقاً مقارنة بجمال ملبس جلسائه, ومن الأفضل له, أن يكون مؤدباً وألا يسترق النظر...

ها هو بعد أن تكيف وتأقلم بعض الشيء، بدأ ينظر إلى ما يجري حوله، كان يخفي تحت أساريره الكثير من الفرح والمرح راغباً أن يكون سلوكه مغايراً عما كان عليه في قريته البائسة، حاول أن يتجمل ببعض الكلمات التي صعب عليه استحضارها, وبعد جهد قال لهم: إني أبدو فقيراُ في أرض غير الأرض التي أعرف فلا يليق بي أن أبقى هنا، شكراً لكم على أي حال وعلى ما قدتموه لي.
وبينما هو كذلك جاءته إحدى الجواري الحسان، لتأخذه إلى مكان إقامته المتميز في قاعة كبيرة تقع في إحدى الطوابق العلوية من ذلك البرج العاجي الجميل والعجيب.
وفيما هو كذلك يتأمل المكان...
جاء أحدهم, طرق الباب واستأذن في الدخول، ليقول له وبأدب جم واضح, بعد أن جلب له ملابس فاخرة:
سيدي العزيز:
بعد أن ترتدي ملابسك الجديدة، وتأخذ وقتك من الراحة، سآتي لأصطحبك.
بعد ذلك، جاء الخادم:
سيدي: هل يمكن أن تتفضل وتأتي معي, لأن جلالة الملك المعظم ملك الجهات الأربع, يطلب منك الحضور.
تساءل: من يكون جلالته، وما هي تلك الجهات الأربع؟
وماذا يريد مني هذا الملك المعظم، أهو نفسه ذلك الذي خالف الربّ؟
هل يعرفني؟
ولماذا يريدني في هذا الوقت المتأخر من الليل؟
ألم يكن الأجدر بهم أو بك أيها الملك أن تجعلني أبقى لبعض الأيام قبل أن تطلبني كما تجري العادة في بيئتنا الريفية، أو كما يقال عليك أن لا تطلب من ضيفك شيئاً إلا بعد مضي وقت ما، ربما ثلاثة ليال، ثم تطلب منه شيئاً أو تستفسر منه حاجته!!
ولكن ربما كانت هذه هي قواعدهم هنا، أو ربما الأمر جلل لهذه الدرجة، لا أظن ذلك، مكلماً نفسه, يا عبد الله......
وإذ به ينزل من الطابق الذي حل فيه، وهو يسير بوجل وخوف، برفقة مستضيفه إلى قاعة يبدو أنها قاعة الملك الليلية.
عندما وصل القاعة إذا به يتسمر في مكانه, لا يقوى أن يتحرك خطوة أخرى إلى الأمام.....!!
من يكون هذا الملك؟
أهذا هو الملك حقاً؟
أهو مليكي الآن؟
من هو؟
يا إلهي.. أليس هذا صابر ابن عمي الذي اختفى وسافر إلى منطقة يقال لها الشام، قبل أربع سنوات من الآن، ليكمل دراسته هناك، يا إلهي لا يمكن أن يكون هو، لا أعتقد أنه هو!!
ربما شبه لي، لا ليس هو, بالتأكيد هو شخص آخر يشبه ابن عمي، أكيد؟؟!!
وما هذه الآلهة التي تحيط به وتتواجد حوله، وما هذه الحدائق البهيجة النضرة وتلك الأشجار الباسقة, هو نفسه بتعجبه وانبهاره المستمر, وربما الاشتياق التراجيدي. لقد انتشر الخبر في الكثير

من القرى والأمصار القريبة والبعيدة, بأنه قد مات أو اختفى أو اختطف من قبل جهات دولية، كانت طريقة اختفائه مريبة حقاً, هل يعقل أن يكون هو نفسه الذي أعرف؟
نعم كان صابر هنا، ربما نكون من سكان بابل الأصليين, وأجدادنا كانوا من أقدم الناس هنا، لم يكن بوسعه أن يمسك نفسه من هول المفاجأة، وهو يحاول أن يتريث في أحاسيسه، حين تعالت الأصوات بالتكبير والتهليل، يعيش الملك العظيم.... يحيا الملك العظيم.....
ولسان حاله يقول:
أنا أمام ملك كأنني أعرفه منذ زمن بعيد، أي ملك هو؟
أنا أعرف هذا الرجل، نعم أعرفه جيداً كما أعرف نفسي، يبدو أن النبوءة التي وعدنا بها حكواتي أيام زمان حين كنا صغاراً تحققت، حين كان يزور عائلة زوجته في عاصمة بابل الحالية مدينة الحلة، ففي آخر زيارة له قبل سنوات, قال لهم:
إنكم لابد وأن تنتظروا حدوث أمر عظيم هنا، وليس لكم إلا أن تنتظروا الفرج لتتخلصوا من همومكم، ستشهدون وقائع ستحدث في بلاد أخرى، وربما تحدث هنا أيضا، وقائع ستحدث في بلاد أصل الحضارة يوماً ما..!!!
وجد نفسه مذهولاً، لا يقوى على تقبل تلك النبوءات، بل هو حقاً أصبح ككاهن واقع في الخطيئة...
حين ذلك بدأ الملك يتكلم معه بكلام أقرب ما يكون إلى لغته التي يعرف.......
قائلاً: كيف حالك يا عبد الله؟
كيف تعيش الآن؟
إذا كنت حقاً الشخص الذي أعرف منذ زمن!
أخبرني:
من أنا، وابن من، ومن أكون؟
قالها وهو سارح النظر.. ثم ابتسم، ولم أن ينبس ببنت شفة.
ولكني كنت أكثر جرأة منه حين بادرته بالسؤال:
ألم تكن أنت نفسك شخصاً منسياً في أرض مقفرة, أرض لم تنجب شيئاً، وكنت أعيش في ذلك الحقل المقرف حيث الأرض لم تعد كما كانت، رغم أن دماء انكيدو15 العظيم تجري في عروقك.
أجابني: نعم........ وخلفها المئات بل الآلاف من علامات الاستفهام والتعجب؟؟؟!!!
أنت عبد الله الذي أعرف نفسه، الشخص الودود الصريح الكريم وكذلك الفقير ابن فلان الفلاني، وتبلغ من العمر كذا....
لقد وقع الاختيار عليك لأنك شخص كريم وودود، وليس لكونك ابن عمي،
إنك تسعى إلى فعل الخير حتى ولو بالقليل الذي تملك..!!
لهذا فقد بادرنا أن نكون ودودين معك، فأنت ضيفنا الأكرم،
أنت سليل أقوام حضارة بلاد ما بين النهرين.
سنحاول أن نخدمك بكل ما أوتينا من قوة، وسنقدم لك كل ما تريد أو يريد الآخرون من سكان بلادكم الغنية والفقيرة في الوقت ذاته, التي كلما اغتنت جاءها الأوغاد ليقطفوا ثمارها, ولكن لا تقلق، فهذه المرحلة سوف تشهد انهيار العروش، وستعود إليكم بلادكم كما كانت, وستكون الخاتمة هنا.
سأساعدك لأنني أرى أنك لا تستطيع أن تخرج من أرضك الجرداء دون أي مساعدة...

وسأكون المخلِّص لكم, فأنت تستحق ذلك كما يستحق الآخرون من أمثالك الشرفاء المغيبين, وستكون شاهداً على بزوغ عودة بابل كما كانت...

يحادثني, وهو منشغل بتنظيف سلاحه...

ولكن، أين الآخرون، أين أولادك عادل وعامر، هذه أسماؤهم أم أني مخطئ؟

عبد الله الفلاح: نعم يا سيدي، أسماء أولادي عادل وعامر، أما الآخرون، فلم يبقَ أحد منهم، بعضهم مات، وبعضهم ذهب إلى خارج البلاد، هاجروا أو هربوا.

الملك:

لا عليك، أظن أنهم أبيدوا بسبب ذلك الوباء اللعين الذي جاءكم من بعيد، هل كنتم قادرين على حماية أنفسكم من الأشرار؟

عبد الله:

لا، فقد أكلنا الشر «شر أكلة»، بل ورسب الكثير منا في امتحان الإيمان فكفر بمعتقداته ومبادئه، وحين جاء الغزاة إلى بلادنا, لم يبادر الكثير منا، إلى دحرهم وقتالهم، بل كان هناك من يعمل معهم ضد أهله، والمؤسف في الأمر أن عدد هؤلاء آنذاك كان كثيراً. إننا في الحقيقة التي لا نفصح عنها, لم نكن أقوياء بما يكفي، ولم يكن لدينا ضمير حي، نعم لم نكن كذلك.

ثم عاد وسأله:

هل كنت قادراً على مواجهة تلك المخاوف؟

نعم، على الرغم من أنه لم يكن لدينا رجال كما كانوا سابقاً، فقد كان منهم من يعطي العدو المعلومات، كما كان بعضهم من يوفر له الطعام والوقود بأبخس الأثمان لكي يضرنا، لقد أعطوا عدونا ميراثنا وميراث بابل العظيمة، أعطوه التلمود، وكذلك أبواب الجهات الأربع.

الملك: لا عليك الآن؟

فشبح الحرب لم يعد قائماً، وانهيار عروش الحضارة اللعينة سيكون مسألة وقت، وهو أمر حتمي وقادم لا محالة، وستعود عليهم بابل بوابل من العذابات وسيكونون في خبر كان، إنها لعنة الملائكة المؤسسين، أنهم كانوا بربهم الذين يعبدون كثيراً ما يكفرون, نعم أنهم كانوا هنا حين جاءوا إلينا, وإن أساطيلهم قد خربت وغرق الكثير منها، وربما لن تقوم لهم قيامة إلا بعد زمن بعيد.

أما نحن فسنعطيك الكثير من الحكمة قبل أن نعطيك الغذاء، لأنك مهيأ لهذا الأمر أكثر من غيرك، سنخرجك إلى أرضك التي سنعيدها إليك، لتعيدها أنت ورفاقك إلى عهدها السابق.

سنجعلك تؤمن بالنبوءة وحتمية التأريخ!!

ولكن لابد من أن تكون مصاناً، ولديك قوى من السماء وكذلك من الأرض.

دبت القشعريرة والخوف في أوصال عبد الله الفلاح، وهو يتمتم (نعم)، وكأنه غير متأكد، قائلاً في نفسه، ربما سيكون الأمر كذلك، ولكن متى وكيف؟ والناس مشتتون، والموارد شحيحة، والنفوس متقلبة، متى يكون هذا الوعد؟

ومتى يعود هذا المجد الذي تتحدث عنه، لابد أن نكون واقعيين نتحدث وفقاً للوقائع التي نعيشها، ألا يحتاج الأمر إلى كثير من الوقت، والتخطيط، والصبر!

أجابه صابر أو الشبيه كما يبدو له، وهو يتمتم، سيان عندي, وبينما هو يراقب حركاته وينصت جيداً لما يقول، فكيف بذلك الفلاح البسيط يتحدث عن الإدارة والتخطيط والموارد، فاندهش، وفرح أيضاً, بدأ يرقب همساته جيداً، ثم أردف صابر قائلاً له:

نعم ما تتحدث عنه، فنحن من أجل ذلك الأمر قد استحضرنا كل ذلك، وما يفكّ الحديد إلا الحديد كما يقال, واليوم قد أصبح لديكم ولدينا ميراث من القوة والجبروت، الميراث القديم.
ثم أردف قائلاً:
طالما اشتد الظلم في كل مكان من العالم، فلابد لأي نظام اقتصادي، أن ينقل معه بذور نمائه كما ينقل في الوقت ذاته بذور انتهائه أيضا، وستظل الأمور تتوالى في العالم السفلي هكذا لفترة، وربما سيزداد الأمر سوءاً, إلا أنه في نهاية المطاف، لابد أن يأتي ذلك اليوم الموعود، حين لا يكون هناك إلا خيار واحد، خيار انتصار قوى الحق، كما تقول الأسطورة البابلية.
لقد حان للمغيبين أن يظهروا، وحان للأمة أن تكون حاضرة ومتهيئة لمخاض عظيم بدأت بوادره تتحقق وترى النور.

15 - انكيدو: شخصية من شخصبات الأساطير السومرية، سمي أيضاً (إنكيمدو، وإياباني، وإنكيتا) في عصور مختلفة. وهو شخصية أساسية في ملحمة جلجامش، حيث صارع الملك جلجامش قبل أن يصبح صديقه الأقرب.

أمريكا وسمرقند.........
وفيما تركنا عبد الله يتأمل ويفكر، بعد أن استمع إلى ما قاله الملك, فعندما كان يصغي إلى ذلك الحوار لم يفطن منه سوى إلى جملة، إننا سنعود، لكن كيف ومتى؟
متى ستكون تلك الحقبة التي يتكلمون عنها؟
الحقبة التي ستجعلنا مقبلين على عودة الخير من جديد، لقد استظهر كامبل تلك المآسي التي توالت عليه حين عاد من رحلته المشبوهة، ليجد نفسه في وضع أشد بؤساً مما كان.
في تلك الأثناء اصطدمت المركبة الكبيرة بأخرى أعظم منها، ربما تحمل علم دولة روسيا أو غيرها، وهي تحوم فوق أرض ولاية لويزيانا، وكان من حسن حظها أنها لم تسقط على الأرض بل سقطت في المحيط الأطلنطي..........
بعد أن تخلت عن مطاردتها صواريخ عابرة للقارات، هكذا خيل لي..
ربما كانت تحمل رؤوساً نووية.......!!!!
وربما أودت بحياة كثير من سكان هذه الولايات، فقد شوهد العديد من الناس وهم يذوبون، وكأنهم كرات من البلازما المتعفنة......
إنها تسقط وتتهاوى في أحشاء الأرض...!!
فهل من أحد نجا في هذا الهجوم!
نعم، لقد نجا أحد قادة جنرالات الحرب الجرثومية..... كان الجنرال جورج الذي يقول:
لقد أصبح رجالي... كأعقاب سجائر نتنة الرائحة, فكأنهم لم يكونوا يحسنون السباحة عكس التيار ولا يعرفون العوم، فكان مصيرهم الخراب والموت.....!!
وفيما هو الوضع كذلك، اصطدمت المنظومة النووية الأمريكية ببعض الصواريخ غير المعروفة.....!!!!
أهو جزاء لسوء ما فعلنا، نظرياتنا وأساليب بطشنا، أم هو أمر جاء بسبب بسطنا لجرثومة القتل الأعمى دون اكتراث.
أهذه هي النهاية التي يجب أن تكون، أم هناك نهاية غيرها...
أين نحن من غضب الربّ؟!
حين لم نعد نكترث لغضب الربّ العظيم، كما لم نكن نكترث لقرارات السماء، فقد حان وقت عقابنا، كنا غير مبالين بل وكنا أنانيين أيضاً، أصبحنا نخسر الحرب تلو الحرب، كذلك كنا نخسر على كل الجبهات التي فتحناها برغباتنا الرعناء، وكل شيء يسير عكس التوقعات....
هل سقطت أمريكا بعظمتها......
يبدو إننا ابتعدنا كثيراً عن مراكز القمة؟؟؟؟
فلا رجاء للعودة.........
في تلك الأثناء.... سقطت الولايات تلو الولايات، الشمالية منها والجنوبية، من المسَلم به أن تتهاوى وتتساقط، فلم تعد الآلهة تتحكم في إرادة السيطرة.
هل علم (كامبل) أن الحوامة اكس 12 قد انفجرت قبل أن تقلع، لأن عملها كان غير مكتمل، نعم إنها مأساة، انفجرت قبل أن تقلع إلى أراضي الآخرين...!!

نعم، فقد انفجرت على مرمى حجر من قاعدتها، نعم هوت على أرض المحطة الكبيرة في قاعدة باركسدال في ولاية لويزيانا على أرض منصة الإطلاق نفسها.!!!

سقطت، وسقط معها كل تلك الخلايا الجذعية التي أنتجت في مختبرات تلك الجامعة الخبيثة...!!

هل كان يخيل لكامبل كيف ستنتهي قصة أسطورة الحضارة المسروقة بعد أربعة قرون من القتل والقهر والحروب مدفوعة الثمن من رعاة البداوة...

كان كامبل.... يتوقع أن هذا اليوم سيأتي عاجلاً أم آجلاً، ولكن لم يكن يتوقع أنه سيكون سريعاً......!!

وأن عالم الأمس البعيد سيكون حاضراً، وهو الذي سيعاقب حضارة أمريكا وحلفاءها.........

نعم لقد حُسم الأمر وحسمت أيضاً حرب العروش الكارتونية، إننا كالذئاب الصغيرة التي ما برحت تعتاش على النهب والسرقة.

أهي لعنة الآخرين!

لابد أن تكون كذلك، يمكن أن تكون لعنة أرض بابل؟

لكن ما شأننا بهم، لماذا كل هذا العداء؟

تمتم بكلمات كانت تختلج وتحشر في جوفه من الخوف, إنه المجد الذي تتحدث عنه الأساطير، فهذه الفترة لم تكن إلا فترة سبات لا أكثر، فهم كالمارد الذي لا يهدأ، والآن بدأ يتحرك، إننا نعيش المجد المزيف، وسيكون السبات هذه المرة من نصيبنا، لكنه سيكون السبات الأطول.

أجابه أحدهم:

سيدي:

هل لك أن تطلع على هذه التقارير المستعجلة التي أمامكم والتي وصلت عبر البريد الالكتروني حالاً..

وهو ينظر إليه, ويقول في سره: لقد انتهت، انتهت، انتهت, ألا تفهمون...!!!

ألا إنها لعنة أرض بابل الغنية...

ولكن كنا نعرف أنها ستكون سبب نهايتنا، وكنا دائماً نحن المبادرون إلى القتل والغضب, ولكن دون جدوى..!!

اليوم الموعود............

هل صح الصحيح؟

هل جاءت النبوءة؟

لكن ثمة أشياء لا تزال تقبع فينا، كالخوف وحكايات الأساطير الجميلة، وعلينا أن نجعلها أشياء جميلة أو تبدو على الأقل كذلك، وفيما هو يضع شهادته أمام قادته..

نعم لقد تحققت نبوءة عبد الله الفلاح, وبدأ كل شيء يفهم، وبدأت معه تفاصيل الحياة التي يعيشها وشعبه، بدقائقها تتكرر، وتظهر له أن قيم السماء بدأت تحارب الظلم والقتل......

لماذا ارتكب الآخرون الظلم؟

ألم يكن باستطاعة الآخرين أن يتعايشوا معاً..., إن الحياة في أي مكان هي نفسها، والأشياء لا تدوم كما هي إلى الأبد....؟؟!!!

هكذا بدأ كامبل يسرد شهادته أمام قادته من الجنرالات الأعلى منه والأقدم رتبة, قائلاً بأن السحر قد انتهى، وزمننا كذلك يبدو هو الآخر قد انتهى، إمبراطوريتنا كغيرها من إمبراطوريات العالم القديم والجديد، لكننا لم نعي الأمر ونأخذ الوقت الكافي لنفهم عِبر الماضي الكثيرة, لقد أيقظ هذا الأمر الشعوب من حولنا. مر كامبل وآخرون قبله مطأطئي الرؤوس, وكانت وجوهم تفيض بالغضب ممن حولهم!!

ثم أردف قائلاً:

إن المهمة لم تكن بتلك السهولة، كما أن الخوف تسلل إلينا كما تسلل الفشل كذلك، رغم أننا نملك ما نملك، نملك أعظم النماذج في السيبرانية الحديثة، كما نملك فلسفة الكون والملايين من شرائح القتل والسبي وأيونات الانفجار العظيم، كل هذا ونحن لم نستطع أن نقاوم ما يجري، إننا نتجه إلى الخوف من البدء من جديد، فالظروف لم تعد كما هي، لأننا لم نكن نحب أن نعيش في حالة من الخوف والرعب بسبب السماء بل تدخلنا في شغل الرب العظيم، إنها اللعنة التي حلت بنا دون رجعة...

وا أسفاه، إننا دخلنا في دائرة اللاعودة، مأزق الخوف والكفر..!!

إننا لم نكن سوى سيرة سيئة من سير كتاب السحرة الماكرين، السحرة الذين كانوا أمكر من سحرة فرعون، لقد طاوعناهم وقتلنا الآخرين، مارسنا القتل, ولعصور، كل أنواع القتل، الرحيم وغير الرحيم، وبشتى الطرق، والمؤسف حقاً أننا لم نقف عند حد معين, فقد أمعنا في القتل والابتزاز، واستمر قادتنا بانتهاج الأسلوب ذاته مع الآخرين...

لم نكن مصلحين بقدر ما كنا قتلة مأجورين نبتز الآخرين، حاولنا أن نلبس قبعات غيرنا من الأمم المغلوبة على أمرها, أردنا أن نكون أصحاب الحلول للمشكلات التي نخلقها ونتفنن في خلقها، ما إن نحلّ مشكلة حتى نجد مشكلة أخرى، لدينا دائماً رغبة في إدخال العالم في مشكلات مؤلمة وموجعة في كل مرة وفي كل مكان, دون أدنى شبهة نحن هم القتلة الاقتصاديون والاجتماعيون والبيئيون...!!

كنا, نريد أن نكون في أحسن حال وأفضل ملبس وأشهى مأكل، كنا نلبس الملابس السوداء القاتمة ونمارس الرذائل مع نساء عملائنا.

قادتنا رغباتنا إلى السيطرة على كل شيء في الصناعة والعمران والتسليح.
حاولنا أن نجعل الآخرين وكأنهم حجارة نقذف بهم إلى المصير المجهول، ندمر قادتهم، ونستبيح ثرواتهم، ونحطم ميراثهم، عاملناهم معاملة سيئة، وكأنهم قادمون إلينا من كواكب أخرى، بل كنا نتمادى أكثر، إذ أردنا أن نجعلهم عبيداً كما جعلنا سكان بلادنا الأصليين عبيداً لنا بفعل الألم والأوبئة والنار, لتكون أمصارهم خاضعة لنا.
ها هو ينتظر أحداً ما من المجلس المنعقد لمحاكمته...!!
دون أن يجيب أحد دونه..!!
إذ لم يجرؤ أحد أن ينبس بكلمة ما.......!!؟؟؟
ثم استرسل قائلاً:
لابد من ذلك الأمر لأننا نمتلك القوة والبراعة والمهارة، ولكن لدينا الكثير من الخداع، نعم وكذلك الكثير من الزيف, نحاول أن نحقق ذاتنا ونرغب بتملك كل شيء لنا, لتظهر قوتنا في كل فئات المجتمع، نريد أن نعبّر عن قوتنا الجديدة باجتياح حرمات الآخرين, وبشتى أنواع الأجهزة الحديثة، لتزيد قدرتنا على بلوغ الكفاءة والتفوق، لكن كل هذه الأمور لم تعد كذلك...!!
نسينا أننا كنا ولا نزال نلوث الأرض، ونلوثها الآن أكثر من ذي قبل.....
صابر... وهو كذلك واقف منتصب على أنقاض تلك الناطحات السابحات بالدم والقهر، قائلاً من بعيد:
انهض يا كامبل... انهض فقد انتهت اللعبة, لم يبقَ غيرك هنا فقد انسحب الجميع، وانتهت الأكاذيب كما انتهت من قبل، الأكذوبة التي اخترعتها أنت وأمثالك، كما انتهى كذلك وقت النزال....!!
ولم يعد لك ولغيرك مكان على هذه الأرض، أو حتى على أي مكان في أنحاء هذا الكوكب........
كامبل:
ألم تكن سبرانياً مثلنا، من الذي أعاد إليك كل هذا النشاط وهذه الحيوية؟
يا صابر.
من أعاد إليك الحياة، على أي حال, يبدو أنها مسألة تافهة، ربما كان هناك خطأ في البرمجة، صابر ألم تكن ضمن فريقنا المتطوع بحمله لشرائح الوباء الخطير.
من أين أتيت وكيف وصلت إلى هنا، لابد أنهم حملوك معهم.
صابر: وهو يعبّر بعينين ضاحكتين:
يؤسفني القول, وسأقول لك ذلك مرة أخرى...
صحيح أنه من الصعب عليّ أن أكون هنا، كما أني لا أستطيع أن أرفض تجاربك، ولكن في الوقت نفسه كان من الصعب عليّ أن أطاوع رغباتك الشريرة، وأن أكون سبرانياً وأن أحشر في بحوثك الطائشة, لكن من زمن ما حصل ما لم يكن في حسابكم، حين عبرت هذا المحيط الكبير وكانت لي مواجهات عظيمة مع قواتكم، وقد استمر قتالنا معكم فترة ليست بالقصيرة، استخدمنا مختلف أنواع الأسلحة التقليدية وغيرها, عليكم أن تحترسوا جيداً فالرجال الأقوياء قادمون حتماً...
قوطع كلام صابر... للحظات، حين حملق المستر كامبل فيه طويلاً, لكن صابر استرسل قائلاً:
ولكن خطأ بشرياً عظيماً لم يستطع أن يفك شفرة انسجام البشر مع الشرائح البيولوجية التي هيأتموها لنا, يبدو أنكم أدخلتم في روح أحدهم شيئاً ما حيث كثيراً ما كان ينظر إليك ويستغرق في

النظر إلي حيناً آخر, لابد أنه الأربعيني أو ما يدعى بأنكيدو ذاك الذي نعرفه وتعرفونه أكثر منا، في كتب التأريخ العظيم لتلك الحضارة، أهو صابر الأربعيني البابلي القادم من بعيد... القادم من الأرض البكر.......

نعم:

هذا هو ذاته صابر الملك....

كامبل:

أهو نفسه العظيم نبوخذ نصر، أو آخر من سلالته..؟؟؟

صابر:

إنه ملك الجهات الأربع، ملك بابل العظيمة..., ربما ستتحقق النبوءة حين تتضافر الرؤيا مع الاعتقاد, فلم يعد الأمر محدداً بالمكان، كما لم تعد تلك الفرص سانحة ليتحكم الظالمون بمصائر الشعوب التي آن لها أن تستفيق مرة أخرى. وها هو الملك نفسه الذي كان يتحين الفرصة منذ زمن بعيد ليعود بالأرض كما كانت، الأرض ذات الأبراج والعجائب السبع، نعم الملك الذي طالما كان يتحين الفرص لاقتناص أي علم أو تطور في مختلف البلدان التي احتلها للاستفادة منها، ولم تكن شهرته العسكرية هي التي تُعرف عنه فحسب، بل كان أحد أشهر ملوك الفنون والعمارة أيضاً...

صابر أو شخص آخر ممن حضر ذلك الزمن، مشبكاً يديه بعضهما ببعض, أخذ يضحك بصوت مجلجل دون تكبر:

نعم قد أبدو كذلك، ولكن ليس كما أخضع الملك العظيم نفسه وأجبره التكبر, نحن ليس هو نفسه، أو كما هو يريد أن نكون، نعم نحن من ذات التراب وذات الجغرافية، ونفس التأريخ، ولكنا بوجه آخر, لا ولن نكون إلا روحاً منه تهيأت وتحررت، لإعادة البناء والتحرر, نعم للبناء والتحرر من الذات السلبية.

كامبل قائلاً:

إنه لأمر مضحك حقاً، كيف حدث ذلك؟

قال صابر:

أفترض جدلاً, أنه كانت لكم حساباتكم الخاصة لهذا الأمر ولغيره، ولكم ألف حساب إن حدث هذا الأمر، وتعرفون كيف تتصرفون معه..

قال كامبل:

يبدو عليه, أنه كان يتحين الفرصة ليعود ببابل كما كانت من قبل..

إذن، وفق ذلك، إنك الآن أسير مملكة بابل العظيمة، هكذا قالها صابر بتهكم!!!

بابل مملكة الحبّ الإنساني والعلاقات البشرية الرائعة، وليست كما يعرفها أعداؤها, ونحن اليوم لا ندعوك إلينا، بل لا نريد أن ندعوك أو نسألك عن الكيفية التي تصنع بها الشرائح أو الصواريخ النووية، إنكم الآن أسرى لدينا، أسرى الحضارة التي كانت وستكون ولابد أن تكون الحضارة الأخيرة حتماً, سنعلمكم أشياء أخرى، وسيحين الوقت لتتعلم ويتعلم الآخرون من حلفائكم الكبار والصغار, أشياء أكثر فائدة من تلك الوسائل القذرة التي تفاخرون بها!

وفيما هو كذلك، فإذا بروح صابر أو روح أنكيدو أو غيرهما تتكلم بأصوات تتعاظم:

قلت لك ذلك، مخاطباً كامبل، حتى لا تتذمر, تعال واجلس هنالك على ذلك الكرسي، وهو ليس ككرسي الاعتراف أو كرسي الحقيقة المزيفة لديكم.

ظلّ كامبل صامتاً لوهلة وهو ينظر إلى معصمه ليعرف الوقت, قبل أن يوجه نظره إلينا، ولكن لم ينبت بشيء، وحين أراد أن يتكلم رأى... شيئاً ما!!

يبدو له أن شيئاً ما، قد تغير فعلاً...!!

هنا تابع صابر الكلام:

هل أنت هكذا على أهبة الاستعجال دائماً، لا عليك لقد انتهت أسطورتكم أسطورة الفخر, والشفق بدأ بالظهور, نعم انتهت أسطورة ما يسمى ببلاد العم.......!!!

إننا لسنا مثلكم، نحن من سنقدم لكم بعد الآن النصائح, نعم، فقد مضى الوقت المخصص للتغيير, وسوف تعلمون أنكم أخطأتم التقدير كثيراً حينما هاجمت قواتكم ذلك الوطن ودمرته، أنتم جعلتم المارد النائم في صدورنا يتحرك ويأمرنا بذلك دون وجل!

وأظن أن فرصة عودتكم إلى جادة الصواب ستكون بعد حين بعيد...!!

لقد كنتم دائماً تحلون المشكلات بإحلال مشكلات أخرى في أي بقعة من الأرض أو خارج الأرض, إنكم تتلذذون بجعل الآخرين أذلاء، ولا تكترثون لأفعالكم السيئة، شئتم أم أبيتم لقد اعترف جنودكم بكل شيء, نعم اعترفوا بكل شيء، وكأنهم أمام كاهن، وأغلب الظن أنكم لابد أن تكونوا على عجلة من أمركم، اعترف كثير من جنودكم بما قاموا به من الإساءة والتنكيل إلى الذات الإلهية قبل كل شيء، وأنكم كنتم تريدون أن تجعلوا من هذه الأرض مختبراً لتجاربكم المقيتة، وأن تقتلوا الناس بل الكثير منهم كيفما تشاؤون وكيفما جاء, تقتلونهم بذلك الأمر وبأبحاثكم وتجاربكم المميتة، إنكم أكثر الناس شراً من أي زمن مرّ على البشرية منذ بدء الخليقة.

أحدهم:

وهو يبكي بشدة، ويقول، إلى البلاد لابد أن نعود، شدوا الرحيل لم يبقَ سوى العودة..

موجهاً كلامه إلى القائد وهو ينظر إليه بغضب، «كأنما لو سنحت له الفرصة لاقتص منه»، ولكن استرسل قائلاً:

فيكم الكثير من الأعزاء والمحسنين، ولكن عندما أوكلتم أمركم وأمرنا إلى بيل وتوم وماسك وقبلهم جورج الأول والثاني ودونالد16 فقد أوكلتم الأمر لتجعلوا النهاية قريبة منكم قبل أن تدنو منا، هكذا كانت الأحداث تجري حتى إن الآخرين من المحسنين لم يُسمح لهم بأن يقدموا لكم ولنا الكثير من النصائح الثمينة بل إنكم عزلتموهم, وكنتم هكذا دائماً, تعيشون وهم التفوق حتى إن كان الهدف الوحيد أن يكون الأمر الذي حصل كما هو, وكيف آل إليه لاحقاً.

أحدهم:

سيدي، ألم يحن الوقت لنرجع إلى البلاد فقد سئمنا البقاء في هذا البحر الهائج ونحن نعيش كالبهائم في هذه العملاقة التي انتشر فيها الوباء المميت، فقد كنا نفهم ما تحدث عنه بريت، لأننا كنا نعاني منه، لقد تحدث عن ذلك الأمر وبكل جرأة.

فقد كان حقاً ما يقول........

16 - أسماء أخذت الكثير من المساحة في ذاكرة الآخرين. بحسب رؤية المؤلف.

عودة يعرب.........

وفيما هو يشدّ الرحال عائداً خائباً إلى بلاده، عاد عبد الله ليسطر صورة أروع حين تلتقي ذاته بصورة أخرى ربما ستترك أثراً كبيراً ليحرك المياه الراكدة منذ حين..........

هل حان الوقت الآن، يبدو عليه أنه نبوخذ نصر ملك بابل العظيم الجديد, وقبل أن يهدأ وجدته منكباً يقبل أيدي ذلك الفلاح البائس الفقير الذي يدعى عبد الله، ويعطيه شيئاً ما..

ربما أعطاه الكثير من المهام قبل العطايا، وبكل ثقة وجبروت أعطاه المفتاح، وفيما هو عاكف كذلك، وبعد وقت لم يجد عبد الله بداً من أن يقبل دون أن يتكلم، أو يقبل مجبراً.

فيما واصل الملك العظيم الإلحاح والإصرار على الفلاح البائس، ليفتح الصندوق ويرى ما في داخله، كان عبد الله مازال متردداً في ذلك، وفي لحظة ما جعلته يقف مشدوهاً، بهت الفلاح حين رأى بريقاً ينطلق من هذا الصندوق، بعد أن فتحه بخوف وتردد، إنه مفتاح لكل شيء وليس لهذا الصندوق فحسب، بدا له وكأنه ناقوس من النور قد دق، نعم هذا هو مفتاح الأرض الجديد، وهو كذلك دوت صفعة قوية وقعت على خده كأنها بها تعيد الزمن إلى الوراء،

لم تكن صفعة عقاب, بقدر ما كانت كأنها صفعة الأيام الخوالي التي عاشها بشقائه القديم..!!

هكذا قالها الملك بصوت أجش وواضح جداً اهتزت له القاعة الملكية...

وأخذ الفلاح يتأمل ما رأى، ولم يكد أن يتكلم, حتى باغته الملك العظيم بالقول:

اذهب بعيداً دون أن تتكلم، وانطلق لتعيد الأرض إلى بكارتها...

لا تتوقف، اذهب وابتعد لتحمل الفرح والفرج للناس...

شدّ لجام العودة...

خرج عبد الله فرحاً، فخوراً، يحسب الأرقام ويعدها للخروج من سلم القصر العظيم.

ينظر إلى الساعة المعلقة على بوابة القصر، فيشاهد أنها تشير إلى العام 2080..!!

هل هي الحقيقة؟

هل هي السنة التي سأنطلق بها؟

أنا العبد لله الفلاح البائس الساكن في حقل الحيوانات العجاف بسبب القحط ونقص المياه الواقعة في شمال أرض بابل.

خرج ولم يعرف أنه قد خرج في رحلته الطويلة ليجد نفسه مقيداً بين النظام العشري والنظام الرقمي، ولكن المفتاح السحري بيده، ولابد أن تكون الحضارة القادمة لنا.

يقف على قارعة الطريق وإذا به يرى من بعيد تلك المدينة القديمة، إنها كما يبدو عاصمة العراق السابقة بغداد.... أهي نفسها أم لا؟

يحاول أن يضغط على الخارطة الرقمية في المفتاح السحري، وينتقل إليها بوساطة تلك المركبة التي يبدو أنها تشبه مركبة فضائية أو شيء آخر مشابه لها، فهو لا يقبل أن يحيا إلا كما هي الآن الحضارة، وكيف تكون الدنيا السفلية، أنحن في العام 2080 حقاً.

أهذا هو حلم أم هراء... تساءل عبد الله في نفسه.

هل أنا في حلم؟

نعم أو ربما نحن في حلم، أم في غفلة من الزمن الغائب.........!!

فشاهد كيف بدت الأرض له مقفرة وغير نضرة كما كانت سابقاً،
عادت به الذاكرة إلى تلك المدن وكيف كانت في عصر مجدها السابق كما خيل له!
ضغط على زر أخضر اللون، وإذا به ينتقل بها من سباتها, إلى خضرة وارفة.
يشير عبد الله إلى أرض أخرى ومدن أخرى، ربما تظهر له مدينة ما تشبه مدينة القاهرة أو مدينة بيروت أو هي كذلك شبيهة لمدينة دمشق، كما فعل لمدينة بغداد... فعل ذات الأمر.......
لكنه وهو يشير إلى أماكن أخرى بعيدة, وإذا به ينظر وبحزن شديد إلى الجنوب، فيشاهد ثغر العراق, حين وجده مازال عالقاً بالبؤس كأنه حورية بائسة مغترة بجواهرها المزيفة، ولكنه كان مقيداً بالحشائش الميتة الطافية على بحيرة من المياه السوداء الآسنة..!!
ضغط على الزر الأخضر.......
فوجد أمصاراً أضحت كتلك المدائن، ووجد نفسه جالساً في حضرة حكامها، ووجد أنها تزاحم الكواكب بهجة.
وهو في طريقه إلى الغرب من مملكة الجهات الأربع، انتابته رغبة جامحة وعبودية واضحة بالسير نحو جنوب الغرب نحو أعظم تلك الأرض مهبط الوحي, وجدها الأرحب....
قال عبد الله:
وجدتها كما رغبت أن أراها، فهي كذلك عتبة وروضة جميلة للناس، ولكن بشكل آخر أجمل، إنها أفضل مكان في الكون كله..
كما أن ولاة الأمر فيها ليسوا كما هم, يبدو لي أنهم ليسوا هم بل إنهم قوم آخرون.
ووجد أن الفقيه الكبير لم يعد لديه فضل بعبادة الربّ على الناس أكثر منه فعلاً وممارسة.
وإذا به وهو كذلك يمخر عباب السماء ويطوي صفائح الأرض، فإذا به يندفع نحو ضيعة بعيدة عن مهبط الملائكة، نحو الغرب، ليجد نفسه عابراً بحراً عظيماً، لابد أنها أرض الفساد، أهي حقاً؟؟؟
كان يسير في مكان غير بعيد، وهو يسمع صوت الانفجارات بين الحين والآخر هنا وهناك، قائلاً في نفسه:
لابد أن أبدأ بها كما طلب مني ذلك الملك العظيم, وكما وعدته, لأنها كانت سبباً في خراب الأرض وفض بكارتها العذرية، نعم كان سكانها السبب في بكارة مجروحة لم تلتئم بعد.

الفصل الثاني

الملكوت.......... بين يديه
حين ينتقل إلى بلاد، غير تلك التي ترعرع فيها، وغير تلك التي فيهم أنها قيم وعادات أخرى, ولكن هل آن الأوان؟
أن يكون له أن يكون، أو يكون كما كانت بيئته، حينها سيصبح ضائعاً ينتظر فرصة للاقتصاص من ذاته...
وبينما هما يسيران في تلك الحدائق الغناء الواقعة في إحدى تلك المدن الأوربية، كانت تمسك بأيدي عامر, وهي تداعبه بتودد, لتجعل النار تلتهب في جسده المرهف بالأحاسيس, وتقول:
كم ناضلت وعانيت يا عزيزي حتى وصلت إلى هنا، إلى بلاد الحرية، وكم أصبحت رائعاً حين لم تعد تفكر بشيء آخر سوانا، نعم بنا نحن عائلتك الرائعة، رينالدا ولامبرد, دون أن تفكر أن تعيد نفسك إلى تلك الأرض الغافية والمتخلفة في ذلك الوادي السحيق.
هكذا كانت تغمره بالفرح، ودائماً ما كانت تردد تلك الكلمات الثقيلة المؤثرة على مسامعه، فهي تريد أن يكون لها فقط، هي لا غير، وأن يقطع كل تلك الوشائج الضعيفة بذلك الماضي البعيد ديناً ودنيا, هكذا هي تارا, فقد أعجبت به منذ أن أتى إلى هنا أيام الهجرة العظيمة نهاية عام 2014، لم يكن إعجاباً بقدر ما, كان مساومة عاطفية من جانب واحد، وهو هكذا منذ أن لمست قدماه هذه الأرض الغريبة، حين لم يمكث طويلاً في بلد الترك إلى أن وصل إلى هنا، إلى باريس عاصمة النور كما يقال, فهو هنا منذ سبعين عاماً حين كان يبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعاً، وهو الآن بعمر الستين تقريباً, حيث يقيم هنا دون عمل يذكر فقد تقاعد منذ فترة ليست بالطويلة، فقد كان يشتغل في أحد مصانع الأثاث الواقعة في إحدى ضواحي باريس الجنوبية.
تعرف إليها بعد سنتين من قدومه إلى هنا، حين اشتدت عليه الليالي، ودائماً ما كان يتذكر تلك الأيام الخوالي، فقد كان يوماً مشهوداً حين يتذكر أنه كان يعيش في ذلك الكوخ الطيني الجميل في تلك القرية الناعسة والقائمة على أصوات الطيور.
وحين أراد أن يتذكر تلك الطفولة، وكيف كانت....
تذكر أعزّ الناس إلى قلبه، تذكر تلك الأم التي كانت حاضرة في وجدانه كما هي حاضرة في تلك الواجبات اليومية، فقد كانت حين يحضر هو ووالده وأخوه الأكبر من نوبة السقي أو الرعي أو عمل ما، حيث يخرجون باكراً ويعودون في وقت الضحى, كل تلك الأيام تمر عليه كأنها شريط سينمائي لا يزال يعرض بنجاح ساحق، يتذكرها وهي تحضر الخبز المفخور بالتنور الطيني، والمخلوط بقليل من السمن الحيواني مع بعض من التمرات, ويتذكر كيف كانت تلك الوجبة الشهية التي يخيل له أنه يتناولها في أرقى مطاعم الشانزليزيه. كما يتذكر حين كان يتردد مع والده وأخيه الأكبر إلى ذلك الحقل مساء ليحصد ما تجود به أرضهم, ويتأمل من بعيد تلك الأبراج المهدمة لحضارة زائلة كانت، وأضحت بقايا وأطلال، فلا الشعب الذي هو منه استطاع أن يحافظ على حضارته ولا السلطات التي احتلت بلادي وعلى مر العصور استطاعت كذلك، يتذكرها بكثرة وخصوصاً عندما يمر مسرعاً من هناك من برج إيفل الجميل. نعم عندما كانت أمه تروي له القصص الريفية البسيطة عن هذه الأبراج المهدمة وعن سكانها التي صورها لهم الحكواتي بأنها دار خراب ولا يمكن للأطفال أن يقتربوا منها أو يعرفوا من كان يسكنها، كما يقال ويشاع أنها

كانت بلاد الشيطان، لينام بعدها كما هم أقرانه على أحلام وكوابيس تلك القصص والأساطير, كما نام بقية الناس عن حق لهم كان واغتصب. كان منذ الساعات الأولى من الليل عندما ينام يشعر بالرثاء والحزن حين يتذكر تلك الأم التي فارقها وهو خارج البلاد، الأم التي لم تعد موجودة حين ابتعد عنهم، وإذا بصوت خافت يهاتفه ليخبره بالأمر, إنها ذهبت إلى جوار ربها مستسلمة للقدر دون أن يتذكر كيف هي الآن في قبرها تخلد.
وإذا به هكذا إلا وصوت يطرق مخيلته البعيدة وهو جالس على تلك الأريكة يتأمل، ولا يعرف ماذا يفعل لأمر يبدو قد شغل باله منذ حين.
رينالدا: ابنته الكبيرة، البالغة من العمر إحدى وعشرين ربيعاً، تدرس في المرحلة الثانية في كلية علوم الفلسفة اللاهوتية في جامعة السوربون, قائلة له:
ودونما أن تنتظر الجواب منه، سأخرج الآن، أرغب بقضاء بعض الوقت خارج البيت، وربما سأقضي يوماً أو يومين.
ابنته فلذة كبده التي لم يتمكن من أن يفرض ديانته عليها، فهي لا تزال تدين بديانة والدتها تارا، إنه دائم التفكير في هذا الأمر، التفكير الذي جعله يتساءل كيف سمح لنفسه بهذا الأمر، لكن هل الابتعاد والشرود سيغير من الأمر شيئاً، كان كثيراً ما يشعر بالحرج أمام ذاته المعذبة، ولكن دون أن يسمح له بالتدخل بتغيير هذا الأمر، وخصوصاً من زوجته أو من ابنته البكر ذات الإحدى والعشرين ربيعاً, أو حتى من تصرفات ابنه الآخر...
لا مبرد ذو الثامنة عشر ربيعاً, فقد كان لا يستطيع فعل أي شيء لهم، وقد أصبح أسيراً لأفكاره، ودائم الشرود، وكأنه لا شيء بالنسبة إليهم, لقد انسلت حبات المسبحة وتناثرت من بين يديه، وهما اللذان أصبح القانون إلى جانبهم فقد اجتازا سن المراهقة وأصبحا راشدين، واتسعت هواياتهما ورغباتهما المشروعة وغير المشروعة, وهو لا سيطرة له عليهم. وهو لا يعرف كيف يعيش حياته، وما هو مستقبله، وماذا سيخبئ له، لقد كان بوسعه أن يحيا حياة غير الحياة التي يحياها الآن. لكن لا يهمه ذاته بقدر ما يهمه أن يرى ما يؤول حال أولئك الذين زرعهم في هذه الأرض المحرمة.
لم يكن بوسعه، أن يسير إلى ذلك المكان ليمارس عباداته بالرغم من علمانيته, فهو يتذكر كيف كانت تجبره تارا أوائل أيام الهجرة أن يذهب إلى الكنيسة دون أن يدخلها بل يبقى في الفناء الخارجي، كما تذكر كيف أجهش في البكاء حين كانت تأخذه أمه إلى ذلك المرقد الصغير القريب من قريتهم البائسة، وهو يمتنع عن الدخول للتبرك.
حين جئت إلى هنا كنت أبحث عن الحرية التي لم أستطع الحصول عليها في بلدي المعذب منذ زمن ليس بالقريب، بلدي الذي لا يعرف أن يحتفظ بأبنائه, بلدي الذي استوطنه الغرباء الذين كانوا لا يحسنون فهم معنى المواطنة، حين جئت هنا لأبحث عن حياة الاستقرار, لم يكن أمامي بد ما أو وسيلة للبقاء إلا هذه الزيجة مدفوعة الثمن والرغبة الأحادية للجنس، بهذا الشرط الذي لا أستطيع أن أقاومه، فقد تخيلت أنه رباط متهرئ سريعاً ما أرميه خلف ظهري وانطلق نحو الغرب، ولكنه كان رباطاً شديداً وقاسياً بل مميتاً في أحيان كثيرة، فلا خلاص منه حتى بالخديعة، فكل القوانين الوضعية, تجعلك كالكلب الذي يقف يحرس دون أن يطلب شيئاً أو حتى يرمى له بعظمة صغيرة يسدّ بها رمقه, فليس هناك من حل، وكثيراً ما كنت أقول لنفسي أنت أسير شهواتك يا هذا.
جلس هكذا وهو يتحدث لأحد أصدقائه ممن قدم للمدينة منذ فترة وجيزة.

سعيد وهذا كان اسمه، وهو عالم اجتماع وأستاذ جامعي جاء في دورة تدريبية إلى هنا إلى باريس منذ فترة وجيزة, وهو صديق (عامر) منذ أن كانا يدرسان في مدينته الغافية على نهر الفرات، بدأ يحاول أن يسلي صديقه المعذب وهو الذي جاء ليراه بعد غياب طويل دون موعد سابق، فهو الذي رسم في ذهنه الكثير من الصور الجميلة التي كان يتوقعها عن صديقه عامر، فقد كان يتوقع أن يجده في تفاصيل حياة أكثر إشراقاً مما كان يعيش، ولكن بدا له أن صديقه كثير الهموم في حياته الخاصة قبل أن يصارحه وكـأنه يعيش هاجس القرية التي نما فيها, فبدا له من خلال تصرفاته ولهجته كأنه ليس ذلك الشخص الذي مضى عليه ما يقارب خمسة عقود يعيش في بيئة متقدمة ومتطورة، فهو لا يعيش كما يعيش غيره من أقرانه هنا، ولكن في الوقت ذاته انتابته لحظات من الخوف على صاحبه، تساءل في نفسه؟

ربما يأتي يوم ما ويغير نظرته كلياً نحو الحياة البائسة والسلبية، وربما يكون ذلك بسبب لحظة يأس فكر فيها, وقد تكون لحظة من تلك اللحظات المؤلمة والقاسية كفيلة لينحدر إلى أمر ما, ولكن حين يجد أحدهم، أعز ما يملك أو يعرف، ينحدر دون أن يعرف أنه ينحدر نحو الهاوية فإنه يصعب عليه ذلك. لذا أخذ يجتهد لإقناعه وهو ذلك العالم الحصيف بعلم الاجتماع بالتخلص من حياته دون عودة........!!

سعيد:

أتعرف يا أخي عامر أننا نعيش اليوم في عالم من التناقضات، فما ينفك يوم ينقضي بهمومه وأفراحه إلا جاء آخر بتلك الرتابة، ولكن لا بد لنا أن نؤمن بل ويجب أن نكون مؤمنين بالله وكذا الحال بالقضاء والقدر، وإذا كنت تريد أن تمتلك كل الأشياء، وأن تدفع ابنك أو ابنتك لدراسة أو عمل ما، ولم ابنك أو ابنتك مقتنعين به، فما عليك إلا أن تتقبل تلك الرغبات وببساطة، ولكن بقليل من التوجيه ربما سيكون لديك الشجاعة الكافية لتناقش الأمر وربما تصل وإياهم إلى حل مناسب وقريب مما كنت تريد أو ترغب، أنا لا أطلب منك تغيير رأيك، ولكن كثيراً ما أجد، أنك إن أردت أن تحيا وتعيش براحة فما عليك إلا المضي بالاتفاق والتنازل أيضاً, فإذا كنت تريد أن تصر على أمر ما, هنا ستصبح وكأنك تريد أن يكون الآخرون بعيدين عنك، وستجعلهم يفعلون عكس ذلك الذي تريد، وكذلك ربما لا يبدون تلك الحماسة وقد لا يجرؤون على المشاركة في أمور أخرى أكثر أهمية, وبالتالي فأنت كمن يضع أمامه معضلة، نعم ربما جعلتها أموراً حاضرة دون أن تدري، وإن التقيد ببعض التقاليد التي تعتز بها لدرجة لا تستطيع التخلي عنها ببساطة ليس مفيداً، هذه الأمور يجب أن تكون متناسبة مع المكان الذي تعيش فيه وضمن البيئة المناسبة, وكذلك الثقافة التي نحياها كل يوم وكافة وسائل الاتصال والتقدم التكنولوجي تؤثر في الاستمرار والالتزام بالتقاليد, وإن الإيمان بتقاليد تخصك أنت وحدك وبشكل قطعي سيجعلك لا تستطيع أن تخطو أي خطوة إلى الأمام، حتى وإن كانت خطوة لصالح الجميع أو كانت خطوة إيجابية للمستقبل, فكما أنت متمسك بتلك التقاليد لأنها انغرست داخلك مع الجذور ومع الماء والملح الذي غذى شجرتك في الحياة، كذا ستجد أبناءك متمسكين بالثقافة التي يعرفونها اليوم. فالفطرة لم تعد أكثر مما يكتسب من البيئة الخارجية وربما أكثر من ذلك، نعم يبدو أن الجينات هجنت أيضاً.

وكذلك كلما صعبت الأمور عليك وشعرت أنك لا تستطيع أن تجد حلاً لمشكلة افتعلتها بشكل شخصي، لابد حينها أن يتوقف التنافس مع الأولاد بل يجب أن يتوقف حالاً, ويجب المضي والبحث عن حلول منطقية، ومن ذلك المدى تحديداً وإلى حد ما يجب أن يكون الحل مبنياً على

الكثير من الود والتنازل، وأن الأمر يجب أن يغذى بكل شيء مفيد وباتجاه إيجابي نحو الأمام، كما يجب أن يكون ارتباطك الاجتماعي معهم يسير في كل لحظة على وتيرة متصاعدة من الفهم والفهم المشترك، وإن تمكنت من ذلك فهو عين الصواب، رغم كل المشاغل وتنوع الرؤى، فهو أمر لا يقف عند حدود معينة، فليس هناك شيء في هذا العالم يسير باتجاهات واضحة وتتهيأ لك فيه التصورات نفسها، فهذا مثالي، فالمشكلات دائمة وما علينا إلا أن نتقبل ذلك دون تذمر، فأنت تعيش حياة سريعة ومتنوعة لا تستطيع وحدك أن تقف أمام عجلتها، فأمامك طريقان لا غير، فحين قررت العيش هنا، كان عليك إما أن تتقبل الوضع كما هو وتتكيف معه أو أن تتغير معه فالأمر سيان، إن الصفة الغالبة للحياة هنا هي الحرية وربما الحرية المطلقة التي لم تألفها في السابق, وهي أفكار لم تكن جديدة بالنسبة إليك، والتحضر الصاخب كفيل بأن يجيبك عن أي تساؤل يخطر على عقلك، كما يجب أن تؤمن بأن لجوؤك إلى هنا كان تسليماً للقدر لا أكثر، وعليك القبول بنتائجه أياً كانت، فأقدار حياتنا ليست ربحاً مطلقاً في كل حال من الأحوال، كما أنه لابد أن تقتنع بأن الإنسان يجب أن يكون خاضعاً للحكمة الربانية، إذا كنا نريد دائماً الحقيقة فلابد أن نلجأ إلى الله، ونلجأ إلى أنفسنا قبل ذلك.

ثم أردف سعيد قائلاً:

يا أخي.. أودّ أن أسأل وأجيب في الوقت نفسه عن تلك الأسئلة، فلو سألنا أنفسنا مجموعة أسئلة محددة من مثل:

ماذا مُنح الإنسان في هذه الحياة؟

وماذا حُرم؟

ولماذا نعيش؟

لو نظرنا جميعنا إلى تلك الأسئلة، ومن وجهة نظري وبحسب النظريات التي درستها، وأقوم بتدريسها لطلبتي في الجامعة التي أعمل فيها، لوجدنا أنه يحكمنا مجموعة أشياء، إن اقتنعت بها حيينا وحييت حياة هانئة لا تحتاج بها إلى أحد إلا حاجتك إلى الله وحده، فالذي منحنا النعم هو الله سبحانه وتعالى، كما أن الأمر المهم، بل الأهم في حياتنا هو حب الآخرين، فحين تحبهم ستصبح سعيداً في حياتك مهما صعبت، وأولادك أولى بذلك الحب قبل الآخرين وليس دونهم.

أما عن سؤالك ماذا حرمنا؟

فالجواب: حرمنا القناعة وطريقة تحديد غاياتنا الجوهرية، لما نحصل عليه أو يقسم لنا من أرزاق.

أما لماذا نعيش في هذه الحياة، وما الذي يجعل لحياتنا معنى، فهو رعاية الآخرين وخدمتهم ومساعدتهم, وهنا لابد أن نكتشف أو أكتشف أنا أو تكتشف أنت أو يكتشف الآخرون، الحكمة، وهذه هي المعادلة الصعبة، فعلينا أن نعرف وأن نوازن بينهما قدر الإمكان، فالنجاة كما يقال بالصدق وهي حين يتعظ الإنسان ويؤمن، بأن سبب وجوده هو الأنسنة، حين يأنس إنسان لآخر في الزمكان وبصدق.........

عامر:

وهو يعدل من جلسته، ويبدو أن عقله قد انشرح قبل قلبه، لما يسمع، وانفرجت أساريره لما يجول في عقل صديقه القديم.

أردف قائلاً، والدموع تنهمر من عينيه، وهو يتناول كأسا من المشروب:

هي لا غيرها!!!.

يردد ذلك ويقول:
لابد أنها دعواتها، هي لا غيرها، نعم لا تفسير لهذا الأمر الذي يحدث الآن, وفيما هو يوجه كلامه، وجليسه مندهش لما يقول..
عامر:
نعم لا تندهش لما أقول وأخبرك به يا أخي، فلولاها، لما جئت إليّ وفي هذا الوقت بالذات، فكم كنت محتاجاً لرؤية نفسي أكثر من أي وقت مضى، وكم كنت أطلب أن ينصحني أحد, يا للحظ الجميل، وأنت الآن من ينصحني بهذه الرسالة، الرسالة التي غيرت من الآن, مسرى حياتي, بعد أن عزمت ألا أكون شيئاً يذكر وألا أحيا بعد ذلك اليوم, إنها الملكوت بعينه، فقد دعوت ربي أن تأتي إليّ أمي بنصيحة أو برسالة تخرجني مما أنا فيه من مأساة وضيق وعذابات وذكريات قاسية تناثرت عليّ وجعلتني أعجز أن أفكر في مستقبلي وبما سيؤول إليه، ما هذا التزامن الروحي يا ربّ؟؟!!!
ثم أردف:
كيف تذكرتني يا أخي وأنا لم أستلم منك خطاباً أو رسالة أو حتى أي شيء آخر قبل هذا الوقت, إنني لم ألتقِ بك منذ أربعين عاماً وربما أكثر, وإذا بك تأتي إلى هنا دون سابق إنذار وتبدأ دون أن تستفسر مني عن شيء، تبدأ معي صفحة بل صفحات من الأسئلة التقليدية، وكأنك قرأتني منذ زمن ليس بالقريب حتى آخر صفحة، ودون أن تفتح صفحة من كتابي بدأت تعطيني النصائح والعبر وكأنك تحاضر في مدرج كلية الاجتماع، هكذا خيل لي كأنك تلقي محاضراتك القيمة دون ملل أو كلل، دون أن تعرف الكثير من التفاصيل المثيرة والدقيقة في حياتي، إنه القدر ليس إلا، وعليّ أن أرجع إلى الله وإلى نفسي وحقيقتها التي كنت أحيا بها...
سعيد: وقد أخذ يضحك، ويقهقه قهقهة مجلجلة بصوت عالٍ:
نعم لم أكن أعرف أنك كنت بهذه الحالة المزرية، من اليأس؟
يا رب.. هل وصلت إلى هذه الحالة من الأسى، ولكني جئت إليك, حين كنت تفكر في حل مشكلة تعاني منها، فربما أكون كما يقول كويسلر17 أستاذ الاجتماع المتخصص بظواهر التزامنية، نعم ربما أكون ملاك المكتبة الذي يأتي دون دعوة ليعطيك النصيحة من كتاب مفتوح، كتاب ليس كما هي الكتب التي لا تقرأ الآن....... بعد أن غزانا التلفاز اللعين!
«ملاك المكتبة»
آرثر كويسلر

17 - روائي وصحافي وناقد إنكليزي هنغاري المولد، ولد في بودابست لأبوين يهوديين. يعد واحداً من أصحاب الأصوات والأفكار الأدبية والسياسية المهمة في القرن العشرين، اشتهر بروايته «ظلام في الظهيرة» (1940) (Darkness at Noon)) التي تناول فيها تحول فكره الأيديولوجي عن الشيوعية وازدراءه الحكمَ الشمولي. نشر في عام 1976 كتاب «السِبط الثالث عشر» The Thirteenth Tribe الذي دحض فيه أسطورة يهود إسرائيل.

الرفيق الرحوم...............
«في مكان قريب من نيوجرسي حدث ما كان يخشاه رويس، عندما أضحت عائلته في خبر كان، حين طبقت عليه نظريات، مالتوس وستيورات، ولكن وقع له حدث جعله يعود ليفكر بنهج جديد، ولتكون له بداية عبر المملكة التي زارها غازياً», ثم ما لبث أن عاد إليها، أسيراً مرحباً به......
نتحدث هنا عن الرفيق الذي التقى به صابر بعد فترة من الزمن، وهل كان ذلك اللقاء عن طريق الصدفة أو بسبب شيء آخر أو نتيجة حظه السعيد أم العاثر، وكما التقى عامر بسعيد فكان التزامن الروحي حاضراً مع كليهما......
صابر:
وهو معه يجالسه والآخر جالس قبالته يمسك بالكأس بإحدى يديه المرتعشتين, مخاطباً إياه بلهجة التحقيق:
كيف أصبح حالك الآن يا سيد رويس, وقد مضى على اختفائك عن دولتك ومجيئك إلينا مدة ليست بالقصيرة، ولكن في الوقت نفسه أرى أنك تبدو أفضل حالاً وصحتك جيدة, ولكن لماذا تجرأت وفعلت ذلك الأمر الخطير؟
وهل كان كل شيء مخطط له أم أنك تماديت بقبول الأوامر، وأي أوامر، الأوامر الخاصة بإبادة الناس والطبيعة، إرضاء لشهوات روكفلرت18 وغيره. إنها المأساة بعينها، أن لا يسير الإنسان على هوى نفسه بل يكون أسير أفكار غيره، وحين كان صابر ينطق بهذه الكلمات، كان رويس وهو تحت تأثير الخمر لا يكاد يرى صابر جيداً، ثم عاد ليستفهم أين أنا؟
وإذا به يقول:
إنه أمر لا يصدق, أبدو الآن كأنني أسير هنا في هذه الأرض الغريبة عني!!,,
وفيما هو كذلك، همس أحدهم في أذنه قائلاً:
لا تتكلم إلا بما تعرف، فإنك قد أصبحت الآن تحت تأثير تلك الشريحة الغبية التي انزلقت في ذراعك الأيسر وجعلتك تخدم الشياطين.
إنك الآن في حضرة بابل العظيمة، لا تتفاجأ أنك اليوم ستعود أدراجك إلى الأصل الجيني للبشرية السمحاء وإلى أقرانك السعداء، حياتك التي كنت تريد أن تحياها كإنسان سليم النوايا, فقد كنت من أفضل الأطباء وأشهرهم في الجامعة العتيدة التي كنت تبحث فيها عن فرص كيفية تحسين الجيل، نعم فقد قرأنا بحوثك المنشورة التي حصلنا عليها من خلال شريحتك وعرفنا أنك كنت إنساناً فاضلاً ومتمرساً في العلوم النافعة لخدمة البشرية من تجاربك المثيرة التي قدمتها للبشرية، ولكنك أرسلت وبتلك الطريقة الغريبة لتحطم كل ارتباطاتك بضميرك الحي، وكان يراد منك أن تكون مضطرباً ومشوش العقل والفهم والغرض من ذلك إنهاء كل الوحدات الجينية التي تحفظ العنصر البشري، ولكنك فعلت العكس....!!!
وهو يتكلم كذلك، فإذا بـ صابر يسأله سؤالاً مثيراً:
كيف عدت إلى رشدك، هل حدث خلل في تلك الرقاقة، أم أنك كنت لا تعرف بها؟..
هزّ رويس رأسه وكأنه لا يصدق ما يسمعه الآن، إنهم يتكلمون وكأن سيرتي وأبحاثي التي لم تكن منشورة على أي من محركات البحث بل كان أغلبها سري ومحدود التداول بشكل لا يقبل الشك،

تعجبت حين علمت أنها موجودة عندهم وقد كانت محصنة بأكثر شروط الأمان والسرية وهي مودعة لدى الوكالة، تساءلت, كيف وصلت إليهم، وكيف يتكلمون عنها، وكيف أصبح أمري مفضوحاً، وكان مفاجئاً لي حين علمت أن البيضاوي يبحث عني ويريدني بأي ثمن...!!!
وعلى الرغم من أن المكان محصن إلى درجة كبيرة من السرية والأمان، ولكن رويس بدا وكأنه سيذهب بعد قليل إلى المقصلة, وهو كذلك فما كان منه إلا أن اعترف بأخطر ما يملك من معلومات على الرغم من أنهم يعرفون الأمر ويعرفون أكثر منه بكثير, ولكنهم كانوا يودون أن يستمعوا إليه رغبة في التشفي أو الانتصار أو الابتهاج, مازال يسترسل في الكلام:
نعم كان عددنا أكثر من التسعين شخصاً بقليل، حين تم الإيعاز إلينا بذلك الأمر بأن يتم أخذنا إلى تلك الدولة الحليفة لنا لنتعلم ونجمع منها بعض المعلومات عن الجنس العربي وعن تلك الجينات القديمة التي تم الحصول عليها من أرضكم أثناء حرب أوائل القرن الحالي، وحين عدنا، لم يكن بوسعي أن أقبل أو أُفُضّل أن أكون هكذا، فما هي الحكمة من وجودي هنا، وأشهد أني لا أرغب أن أرتمي في أحضانهم أحضان من يريدون الشر لعائلتي الصغيرة، المؤلفة من أربعة أشخاص، إذ يجب أن لا يبقى أحد منهم، هذه هي مواثيق الحكومة العالمية، هذه هي الشروط التي وضعتها في تحديد الجنس البشري وفي البقاء، وكأن الأمر ليس من مهمة الخالق!!
لقد كان لدي جواب، ودائماً ما كان حاضراً، نعم حاضر له ولأي استفسار يبدو صعباً، كنت مستعداً له، فقد حسبت وأحصيت ودونت واستحضرت ذلك كله في دفتر ذاكرتي، إلا أني لم أنتبه للحظة أنني سأكون رأس الحربة في تلك التجارب المميتة، وأنه لن يكترث بي أحد وسأكون الضحية كما أنا الآن، وسبباً في موت الآلاف بل الملايين من الضحايا ممن أريد لهم أن يبادوا عن بكرة أبيهم.....!!!
أحقاً أنا سأكون كذلك...!!!
وفيما أنا كذلك، سمعت صوتاً غاضباً يربت على كتفي، ويقول:
نعم أنت لا غير..
نعم أنت وليم كريسرويس.. استعد لتكون كما تعلمت في مختبرات حلف المحيط الأطلنطي، وبخبث واضح موجهاً كلامه إلي، وباستعلاء ظاهر, نعم لابد أن تطبق الآن كل ما عرفته، ولتعلم أنه لديك ما يكفي لكي تبدأ.
لابد أن تقبل بهذا الأمر دون أن تفكر في المخالفة أو الرفض, وإلا سيكون مصيرك كمصير الآخرين.
فهذا أمر لا نقاش فيه وليس لك أن تعترض عليه, وقد انتهى البت فيه وأصبح أمراً نافذاً، لا تقل أي شيء وكل ما تتلفظ به مراقب، بل أصبحت بحكم الملغي التفكير، ولن تستطيع التفوه بكلمة كيف، أو الاستعلام، أو التفكير.......
قلت له... إنني لا أستطيع أن أفهم هذا الأمر جيداً.
ثم لماذا كل هذا الغضب وأنتم توكلون الأمر إلي؟
ألسنا من نمتلك ناصية العلم، ونمتلك أيضاً القوة والجبروت والاقتصاد.
ونستطيع أن نغيّر العالم كما نريد بضغطة زر لا أكثر...
ولكن كذلك لابد أن نجعله كما نريد.

وإذا أنا وإذا بهم هكذا يشرحون لي كيف أطبق الدراسات على أرض الواقع، دون السماح بأدنى نقاش معهم, كان المستر كامبل وفي تلك اللحظة, وكأنه يوجه لي تهمة، وأي تهمة....
فحين شاهدت الناس وكأنهم أصبحوا كالديدان التي تطأ عليها الأقدام في أرض مكشوفة، فكرت ملياً في كلامه وعرفت أنني أصبحت الآن بحكم الميت كما هم الناس المفجوعون بأبنائهم وذويهم، وما علي سوى الانتظار لتنفيذ الحكم القاسي.......
مباشرة.. قررت أن أرفض تنفيذ هذا الأمر ومهما كان الثمن والنتائج، وانطلقت بكبسولة، وحيداً، لمغادرة المختبرات حين انشغلوا بالحدث، اتجهت مسرعاً نحو مدينة نيوجرسي حيث أقيم لأخبر أقرب الناس إلي، ولكن.....!!!
لم يكن بوسعي أن أكون أسرع منهم فقد وجدت ذلك الطفل الذي كنت أتوجس منه خيفة لما يفكر فيه، فعقله كان يبدو أكبر من عمره، وإيماءاته الجميلة تجعلني أذهب بعيداً في الانتشاء والفخر، وجدته جثة هامدة، نعم، بل ومقطعة أيضاً، فلقد وصلوا قبلي، لقد قرروا أن يكون رويس وحيداً، لقد غاب الآخرون, أين الطفل جون وأين الابنة الصغيرة ماري وأين زوجتي مس رويس, لحظات من الأسى ودموع العين لم تكفِ أن تكون حاضرة الآن، ولا الزمن كله يكفي ليستوعب ما يضيق بصدري من غضب عارم وألم، لابد لي أن أختار طريقا آخر لأكون أسرع منهم، بالرغم من الألم الذي يعتريني، فأنا أستطيع أن أبعد الشر عنهم, عن بقية الخلق، فالمجرم دائماً ما يحوم حول جريمته.......
لقد أصدروا حكم الإعدام، نعم فقد طبقوا نظرية مالتوس19 أو ربما نظريات ريتشارد كانتيلون20، نعم هكذا أرادوا وطبقوها علي..........
مارسوا كل أنواع الإبادة الجماعية، لا يهمهم إن كان رضيعاً أو رجلاً مسناً، أو امرأة أو طفلاً أو حيواناً، الكل لديهم سيان..
لقد دفعوا الثمن, نعم دفعه أشخاص كانوا معي، نعم كانوا ولا يزالون مهووسين بالدم وقبضوا وقبلوا أيضاً العرض، وهم بانتظار التنفيذ ليس إلا..
مهووسون بالطمع والقتل والتنكيل والتغيير نحو أتمتة الجنس البشري وجعله يصبح (روبوتات).
لا ينظرون إلا إلى النوع القاتل الذي تتغذى عروقه على دماء الآخرين.....
لم أعد أفكر كيف سأكون، فقد انطلقت منذ ذلك الحين، وتذكرت أني مبرمج بتلك الشريحة الخبيئة، فعمدت إلى قطع ذراعي بدم بارد..........
لأقطع كل شيء بهم، حتى لا أجعلهم يفكرون أنهم يستطيعون أن يتواصلوا معي حتى بالهمس...............
وحتى ذلك الوقت، ربما القدر وحده سيجعلني أبتعد عنهم، وعسى الرب الرحيم أن يغفر لي، لم أكن أفكر إلا أن أذهب إلى ذلك المكان الإلهي المذكور في نبوءاتهم............
لقد قررت في نفسي بأن الوقت حان، وعلي الآن أن أعرف الخير كما عرفت الشر من قبل....
سألت نفسي ولأكثر من مرة هل رجعت إلى نفسي، أشعر أكثر من ذي قبل أني أستطيع أن أصل إليهم، أين يكونون الآن، حاولت الاختفاء في إحدى البارات الريفية المنعزلة منذ إبادة أصحاب الأرض الأصليين، ومكثت على حافة إحدى الطرق البعيدة في نيوجرسي.
لم أستطيع أن أحتمل، ما الذي أصابني, بدا لي أن الحمى بدأت تتغلغل في جسدي، ولكن إن مت هنا أو نمت هناك أو أغمي علي، سأكون بيدهم بالتأكيد, فأنا أشعر أنهم قريبون مني كثيراً.........

والأقمار الاصطناعية كلها موجهة نحوي الآن.
وأنا كذلك وإذا بي قد غبت عن الوعي، حين كنت أنام في مقعد سيارتي الخلفية،
وذهبت معي تلك الوقائع، وما إن غفت عيناي حتى شعرت بنوبة من الحمى ذهبت بي بعيداً، كان أحدهم يربت على كتفي، تخيلته.............
نعم تخيلته، ربما هو, هو مرة أخرى كما هي عادته.......
ولكن حين نظرت وجدتهم......... آخرون!!!!
من هم؟........ مخلوقات لا يبدو لي أني أعرفهم
هل الأمر كما يبدو لي أم أنه شيء آخر؟
توقفت... والرعب ينتابني.......
فقد شاهدت ما لم أشاهده من قبل، شاهدت المزيد من المركبات الفضائية راحلة وقادمة..
وكأنها منطقة لتلك السيارات التي كان يلهو بها الصغير جون.... أين أنت الآن....... يا رويس.
لم أتمكن أن أعرف أين أنا اليوم، ماذا دهاني أين أحيا، فقد وجدت نفسي أعيش في منظومة أخرى من الزمن، شعرت أنني في دائرة غير متناهية من الحزن والألم.
لا عليك... رويس.
قالها.... أحدهم، فقد كنت محظوظاً حين مرت إحدى مركباتنا بالقرب منك، وكانت الرقيقة التي قطعتها لا يزال فيها بعض ذلك الوميض، اقتربنا من تلك الرقيقة في جسمك فاستطعنا أن نتبعك........ لابد أن تعود إلى حياتك الأخرى حياتك الجميلة.
تعود محباً للخير محباً للناس، إنك الآن في المملكة العظيمة المملكة التي كنت تعيش يوماً ما فيها عندما كنت مجنداً بالفرقة المجوقلة، وقريباً منها كنت تقيم في منطقة يقال لها الكفل إحدى ضواحي المملكة.
ولسوء حظك لم تكن تعرف أن تمتزج بنا منذ ذلك الوقت، بل كنت رجلاً تقوم بمهمة غير إنسانية، كنت في حملة الخداع والقتل وسرقة كل شيء.........
لا عليك سنكون أصدقاء، فأنت الآن واحد منا.......
وما عليك إلا أن تطمئن، نعم اطمئن..........
فلا يزال فيك نبض، ونحن نحتاجك لمهمات أخرى.........

18 - روكفلرت: ينحدر من أسرة أمريكية صناعية عملت في مجال الصناعة والسياسة وبرزت فيه. لعب دوراً محورياً في تأسيس صناعة النفط، وذلك عن طريق شركة «ستاندرد أويل» التي قام بتأسيسها في عام ١٨٧٠ في كليفلاند بولاية أوهايو الأمريكية. ويعد من كبار رجال الأعمال والصناعيين في الولايات المتحدة الأمريكية الذين يتحكمون بمصير العالم عبر الحكومة العالمية. بحسب رؤية المؤلف.
19 - توماس مالتوس, توماس روبرت مالتوس (١٤ فبراير ١٧٦٦ - ٢٣ ديسمبر ١٨٣٤)، باحث سكاني واقتصادي، سياسي إنجليزي. وهو مشهور بنظرياته المؤثرة حول التكاثر السكاني.
20 - Cantillon، (1680 - مايو 1734)، خبيرٌ اقتصادي فرنسي من أصل أيرلندي.

القيود من الداخل.......... لابد لها...
أصعب المواقف حين تعمل وتهدف إلى تحقيق نصر ما, ثم يأتي الطعن من الخلف، ولكن كما الشمس حين تشرق وتوزع ضياءها على المعمورة لابد لها أن تغيب وتغرب، وهكذا دائماً الوصول إلى الحقيقة ليس بالأمر اليسير ولكن ليس بالأمر المستحيل أيضاً. حين يتذكر عبد الله الفلاح حياة الرفاهية في بقاع تلك الممالك الغابرة، كان صابر في الوقت ذاته يبحث وكذا الآلهة عمّن يحمل يراع التغيير وشراعه, يحضر محمد الصديق القديم، كما تحضر كذلك خيانات الآخرين ممن كانوا معه في تلك الرحلة......
جلس وهو كذلك في أشد الأوقات التي تمر عليه الآن, فقد كان بحاجة ماسة أن يتذكر بعد سنين من العذاب والفرح، آن له يتذكر ذلك البيت القديم الذي بدا وكأنه أصبح جزءاً من تلك الأطلال المنتشرة على ضفاف نهر الفرات العظيم، كما كان الهرم يبدو على تلك الأشياء كلها, كان يبدو عليه ذلك الألم، إلا أنه فكر في أمر, أراد له أن يحدث أخيراً, فهو لم يعد يفكر في شيء غيره، فقط كان يريد أن يعرف مصير ولده عامر حيث مضى زمن بعيد منذ ابتعد عن بلدته, وهو يقول في مخيلته إنني لم أرَ في حياتي مثل هذا الأمر من قبل، لم أشأ الارتباك في حركاتي، كأنني غريب في هذه القرية الصغيرة, والتي بدا عبد الله أنه لم يبرحها منذ أن التقى الملك العظيم قبل فترة قصيرة، حينها تذكر أنه شاهد من حياة الرفاهية في بابل تلك المملكة العظيمة, كل تلك الأمور وغيرها، وهو كذلك لم يعد يتذكر أنه كان يوماً بمثل تلك السعادة والهناء، لأن الحياة نحو الشقاء سرعان ما عادت به, فسكان تلك المملكة كانوا كثيراً ما يعملون وهم يشعرون بالابتهاج, وتذكر بالمقابل، كيف كان يعيش كما يعيش الآخرون من القرويين أمثاله، ممن يعرفهم جيداً، كانوا يعيشون وهم يقبعون في ضنك الحياة ولا يزالون.......
في تلك الأثناء وبينما هو يستذكر ويحاول أن يستجمع ذكرياته، فإذا به يلتقي أحد أصدقائه ويتحدث معه عن تلك الليلة، وكيف كان وكيف أصبح الآن, يتأمل حياته، ويقول، إننا نحيا بالعمل الشاق، ولكن دون ابتهاج، ولكن ما الذي تغير في حياتنا، التي يجب أن تتغير, لأنه حينها نستطيع أن نعمل ونفرح، وهو كذلك مسترسل في الحديث, جاءه أحدهم ليخبره بشيء ما, وانصرف بعيداً.
ابتسم ضاحكاً في سريرته:
وبصوت منخفض, يبدو أنه قد عرض أمراً ما على سكان قريته، وقد حرص أن يكون مقبولاً......!!!
عشنا منذ زمن سحيق نأمل ألا يكون الأمر مهماً، ولكن على العكس من ذلك، فالأمر خطير بل وخطير جداً، والوصول إلى الحقيقة لم يعد أمراً يسيراً ومتاحاً, فنحن لابد أن نتقبل الأمر الواقع، وبعدها منذ تلك اللحظة بدا وكأنه لم يعد يتذكر شيئاً, إلا تلك الأشياء التي يريد أو يرغب أن يتذكرها وتظهر في مخيلته, وكيف كان يسير الأب هو وأولاده إلى الحقل ويكافحون من أجل تأمين مستقبلهم المجهول.
وهكذا حين تغيرت الأرض التي كان يعرفها ويحبها، وتحولت، وتنازلت عن كل قوة، وعن أبنائها اليافعين القادرين على التغيير الساعين إلى الهجرة إلى دول الغير، بيد أن هذا الأمر لم يعد سوى ابتعاد عن تلك الذكريات، وفي النهاية وإزاء تلك الروح المنفعلة عاد ليقول في سريرته:

لقد استحال الأمر، وعلينا أن نقبل أن يكون هناك وضع آخر, فوضعنا دائماً سيئ وإن حصل تغير، فهو ما إن يتبدل حتى يتبدل نحو الأسوأ، ويقول:
لابد وأن يأتي يوم، يوم ما وهو ليس ببعيد, حتى ينبعث ذلك الطير النائم، كالطائر الفينيقي أو طائر العنقاء، كما تقول الأسطورة بأنه سيعود يوماً ما, لأننا لا نتنبأ إلا بما تعجز الحقائق عنه، ومن هذه الحقائق إرجاع الحقوق إلى نصابها, وحتى تعود الشمس لتستقر في مكان شروقها الأول, الشمس نفسها التي تغرب في المساء وتبزغ مجدداً في الصباح، بالإضافة إلى أنها رمز للروح الخالدة في رحلتها الأبدية بعد الموت هي الحضارة التي طالما اختارت وتختار مكانها الصحيح بين دجلة والفرات كما أخبرنا بذلك الإله انكي.
ثم بادرهم بالقول موجهاً نظراته إليهم:
كنا نعيش دائماً ونحلم بأمل العودة إلى تلك القوة والجبروت، إلى ذلك الزمن الغابر، فقد مضى الكثير من الزمن المغبر علينا، لقد كنا عكس ما يريده الزمن منا أن نكون، وتتعاقب السنون، كأنها تعيد دورة الحياة كعقارب الساعة، ولم نكن نفكر في أمرها وكيف نعيش وما هي الأرزاق، كان كل ما نعرفه أن الرب سيكون كفيلاً بذلك، ولكن حينما ظهر آخرون يريدون لنا أن نكون في عالم النسيان، وهو خلاف ما نؤمن به حين كنا نؤمن بأن الموت والرزق من الله، وليس لنا أن نفكر فيه أو نعترض عليه.
كان صابر، في تلك الأحيان, يلتقي أناساً يبدو أنهم من مدينته القديمة، يحدثهم قائلاً لهم:
نحن هنا لا نحتاج أن نحدد ما نريد من أنفسنا أن نكون؟
محمد:
نعم نحن أناس ليس لنا إلا أن نتقبل الأمر كما هو, وإن أردنا أن نفعل شيئاً آخر, فإننا نفكر في النتائج، قبل أن نبدأ، وكنا نتمنى دائماً الخير للناس.
ثم أردف قائلاً:
لم نكن نهتم بانتظار حدوث شيء عظيم، إننا أمة لم تكن تفكر بوحدة قرارها، وكانت عصا الطاعة حاضرة في ذهن المتعلم قبل الجاهل منا...!!
لقد تعرضنا للكثير من المهانة ولا نزال، وكثير منا لم يستطع أن يبقى على ذات القيم التي كان عليها، فبعد أن اشتدت الأمور علينا بدأ كثير منا يسير عكس التيار، بل كان منهم فئة ليست بالقليلة تآمروا مع العدو وأصبحوا أكثر خطورة علينا من العدو نفسه.
فكيف تريد أن تقتنع أو أقتنع أنا كذلك, بأن الذين عالجوك حين مرضت، كانوا مغيبين أو مخدرين وأنهم لا يعرفون ما الذي زرعوه في ذراعك، لا أعتقد ذلك، فكثير من الأخبار حينها تداولت عن قيام مجموعة بنوع من الإرهاب النفسي، فقد قيودنا وغيروا الكثير من الأشياء والقيم، زرعت داخلنا وكانت أخطر مما نتوقع، ولكن إن أردنا التحرر، لابد من اقتلاعها جميعاً, نعم اقتلاع تلك القيود كلها إذا كنا نريد الحرية بحق......
نعم لابد لها أن تكون من أوائل بل على رأس قائمة القرارات التي يجب أن تتخذ بل يتخذها الثوار إن أصبح الأمر لهم, وعلينا أن نبدأ حيثما تكون هناك, في أرض أصل الحضارة ومن ثم نوكل الأمر الخارجي إلى ذلك الفلاح الملك ليستكمل دورة القدر الذي تقرر له أن يكون كذلك.
صابر:

وبعد صمت رهيب، أردف قائلاً، وهو يتصفح بريده الالكتروني، يبدو وكأنه تذكر أمراً ما، ربما تذكر أمراً خطيراً يخص رمزي، فقد كان آخر لقاء جمعه به، حين شاهده في تلك الغرفة يتحدث وكامبل يضحك وكأنه أقرب أصدقائه قائلاً:

نعم ربما يراودني الشك بأمر هذا الذي يدعى رمزي، «وما سمعه من كلام تفوّه به محمد»، يبدو لي أن الأمر خطير......!!

ثم أردف،

موجهاً كلامه إلى محمد: أنا وأنت لا نزال نعيش في وهم, ما تتحدث عنه كلام يحتاج تنفيذه إلى كثير من الصبر والصلاة، بل كثير من التضحية وتبدل أطوار الناس، وكلانا لا يحب أن يكون قاضياً على أهله، فالقاضي أحياناً يذبح بلا سكين، ونحن أولاً وأخيراً لا نعدو إلا أن نكون بشراً، لا ملائكة...!!!

محمد:

ولكن أين ذلك القاضي العادل في هذه الأرض والذي كان يحكم أو يراد له أن يحكم بالحق, أو يدّعي ذلك حين كنا بلداً مستباحاً, وكذلك كان الآخرون متفرجين, الآخرون الذين يدعون المشتركات معنا, أين هم، أين كانوا، كيف سمحوا لذلك الأمر أن يحدث..!!

صابر:

إن العالم يسير ولا يزال نحو التآكل دون التكافل، فالطمع والاستغلال والعبودية، أمور استقرت في عقول المتسلطين علينا، نعم قد حملنا وأجبرنا على ذلك الأمر دون أن نرغب به, وهكذا أصبحنا كالدومينو أو كالنرد، يضرب أحدنا بالآخر، إنه حكم الرأسمالية التي يريدون من قراراتها أن لا تعود الحقوق إلى أهلها......!!!

إن تم اغتيالنا أو قتلنا!!

الأمر عندهم سيان، أمر لم يكن الأول ولن يكون الأخير، فكثير من الثوار كانوا في عداد الموتى حين أرادوا التحرر..... أين جيفارا مثلاً.

لقد كنا كالحطب في نيران الآخرين.. نار تتجدد دائماً بنا...!!!

محمد:

لقد كان كالقدر أو هو كذلك يتعقبنا دائماً ولا يزال، لماذا؟

صابر:

لم يكن هناك بد من ذلك، أمر أريد له ذلك, أريد أن لا يكون الثائر والمحرر حاضراً في العقول، لكنه حاضر دائم في عقول الجبناء الذين يحاولون أن يدسوا السم دائماً في العسل، ولكن المؤلم حقاً، أن يكون الأمر بهذه السهولة، وواضحاً من الآخرين.

مازالت تلك الكلمات تصدح في أذن محمد، وهو يفكر كيف يبلغ الآخرين ما بلغه من أخبار بالغة الحزن؟

فحين بلغه مقتل أحد الرفاق، بقصف، وكان أمر جلل، أقلقه الأمر وآلمه، ولكن الأمر الأكثر إيلاماً كان وفاة المصلح الكبير، وربما كان أحد الصابرين الخفين..!!

وبينما يتحدث مع نفسه وبصوت مهموس يكاد أن يسمع، إن ما يقلقني حقاً أننا لم نعد نفهم ماذا يخبّئ لنا الزمن...

وهل مازلنا نعيش الزمن نفسه, وكأن الأرض لا تزال تفيض بهم, هؤلاء القتلة الفاجرون.......

الزمن الغابر.......... لن يعود
على الرغم مما وصلهم من أخبار مفرحة، تمثلت بمقتل أحد قادة المملكة القديمة، وقد انهارت تلك القوة الخائرة في صفوفهم, حين عادت الخيول تصهل وتتجه برؤوسها نحو الغرب، وبشكل يوحي أنها لا ترغب أن تتوقف, إلا وهي تدرك الشاطئ الآخر من الأطلنطي...
حينما وصلت أخبار مقتل القائد الكبير إلى مسامع الآخرين وأولهم القائد كامبل الذي ما برح أن وقف منتشياً في إحدى قواعده الخائرة في الخليج، وقف مع مجموعة رفاق له من ضباط الحلف, وما إن سمعوا الخبر المفرح بالنسبة إليهم، حتى وصلهم خبر آخر ليس كسابقه, وقع عليهم كالصاعقة المميتة، الخبر الذي جاءهم بالصوت والصورة قبل الضوء، كما تكون عادة البرق, الخبر الذي أفزعهم ولا يزال، بأن قواتهم ومدمراتهم قد تعرضت إلى غضب لا آخر له كما لا أول له........
كامبل: وهو مرتعش، وموجهاً كلامه إلى أقرب مساعديه، ما الذي يحدث...؟؟؟
سيدي: يبدو أنه الطوفان الثاني فنحن لم نعرف أسرار ما يحدث.....!!!
فقد أصبحت مياه الخليج تئزّ نزاً، ولم نجد أنفسنا كما كنا, لقد كان شيئاً رهيباً, حيث لم تستطيع أجهزة الكاشفات من اكتشافها، كما لم تستطع أي قوة ردع من صدّ القوة والطاقة الهائلة التي تعرضنا إليها، إنها غير معروفة المصدر!!!
كامبل: ما الذي نفعله الآن؟ ما هو الموقف الحالي للخسائر؟
ثم أردف قائلاً:
ما هي الأوامر والتعليمات إزاء ذلك الأمر المفزع؟
هل هناك شيء أبلغنا به، أو أية أوامر صادرة عن المركز الجنوبي للقيادة المركزية للحلف؟
أحدهم مسترسلاً، سيدي: بلغني أمر خطير، مفاده، بأنه لم تعد لدينا أية قيادة مركزية، فقد أصبحت الأوامر تصدر بشكل منفرد وبشكل طوعي وبحسب رؤية القادة الميدانيين، وكل دولة حليفة عليها أن تتصرف بمواردها المتاحة وتحافظ على بنفسها, كما أن العديد من العواصم ممن كانت تعمل تحت إمرة واحدة، أصبحت خارج العمل ولم تعد موجودة على خارطة الحرب، وقد أضحت أرضاً محتلة, نعم فقد تم احتلال الكثير من العواصم والمدن الكبيرة، بل استبيحت وسقطت الواحدة تلو الأخرى، جاءت هذه الأنباء وتراكمت على رأسنا كالمضارب، إنّا لم نعد نمتلك الكثير من القوة والهيمنة بعد الآن, إلا ما تبقى من هذه القواعد المبعثرة هنا أوهناك، تلك القواعد التي أنشأناها في يوم ما لمن كانوا عبيداً لنا، يجب أن نباشر الآن العمل فيها بأنفسنا, فلم نعد نأمن بطش شعوبهم المقهورة.....!!!
أو تلك القواعد التي جعلناها تعمل كأنها حدائق خلفية لنا....!!
إننا في تراجع مستمر، فالأمر يبدو حقيقياً لنا، وكأننا أضحينا في بداياتنا, ولابد لنا من أن نبحث عن روح العالم الآخر, أن نبحث عن روح كريستوفر كولومبس كما نبحث عن روح أمريكو فسبوتشي، وكذلك مارتن فالدسيملر21!!!
أصبحنا، كمن فقد باب المغارة, بل وانغلقت علينا كل الأبواب، كما أني كثيراً ما كنت اقرأ في كتب الأساطير القديمة عن تلك الرؤوس اليانعة من الخيول المسومة، وأتساءل لماذا غالباً ما تكون هي،

ودوماً ما تتجه برؤوسها نحو جهة ما، دون بقية الجهات الثلاث الأخرى؟ والغريب في الأمر أنه لم يتبقَ من تلك الخيول إلا هذه، وأشار إلى بعضها في لوحة مرسومة ومعلقة على الجدار، نعم كانت رؤوسها مقطوعة دون بقية الجسد, وهي عادة ما تتجه بها نحو غرب الأرض، أهي نبوءة ما، ولماذا إلى تلك الجهة دون غيرها فهي تشير إلى تلك الهجمات التي تخبرنا عنها الأساطير، وبأنها واقعة ستحدث لا محالة، كما يحدثنا التأريخ عنها, نعم، سوف يهاجموننا مرة أخرى, كما تقول الأسطورة, كما هاجمونا في أزمان غابرة، ولكن هذه المرة ستكون في هذه الهجمة, النهاية المحتومة لنا. هذا الأمر كله كان سراً، وهو مذكور في كتبهم، وقد أخبرني به أحدهم قبل سنوات من سحرة تلك الدولة الحليفة اللعينة!!

ولكني لم أكن، ومازلت لا أعتقد، بأن هذا الأمر سيحدث، أو على الأقل قد جاء الوعد به الآن....!!

كما أن السحرة عند ساداتنا في البلد الحليف, لم يعودوا كما كانوا سابقاً وكما عهدناهم، يستطيعون السحر, كما هم سحرة فرعون، فقد باءت أفعالهم بالخسران والتنبؤ بالقتل، أثبتت التجارب وخصوصاً تلك التي نقوم بها وهم معنا، وكما يبدو كذلك أن أسرار قوتهم الخفية قد بدأت تنهار وربما ستفشل هي الأخرى، ولا يزال الأمر كذلك فلم يعد سحرهم يفيدنا أو ينفع أحداً منا، فقد انقلب السحر على الساحر كما يقولون، وربما سنرفع الأكف عالياً حاملين لواء الاستسلام، لأنهم فشلوا في سحرهم الأسود، كما فشل قادتنا....!!

ديفيد كاميرون:

وهو مساعد أول في القوات الجنوبية للحلف، سيدي القائد لقد استلمنا حالاً من باريس المحتلة أوامر بالانسحاب الفوري من جبهات عدة وفي محاور مختلفة، كما يظهر من النبوءات الخارقة, التي لم تؤمن بها, والمؤسف أنها قد تحققت فعلاً, نعم، فقد كانت الأوامر التي تصدر بالانسحاب والاستسلام تنزل علينا كما تنزل الصاعقة, على رؤوسنا, كرعد قوي ضربنا بشدة. إني أتساءل حقيقة، أهي قوى خارقة من السماء, كأنها كانت كذلك، نعم بدت لنا كذلك، لقد نزلت من أعلى أو انفجرت من أسفل, الأمر أصبح سيان بالنسبة إلينا، فلم نعد نفرق بينهما، ربما حدث أمر عظيم... وهو كذلك أمر جلل والوقت يمضي لغير صالحنا، وعلينا أن نتصرف، تاركاً, كامبل في حيرة من أمره.

وهو هكذا مسترسل في الكلام، سيدي حدث شيء عجيب, لم نعهده سابقاً، ومع هذا الأمر والفواجع التي نحن فيها, وعدم توفر الوقت للمباغتة، ولكن دعني أخبرك شيئاً:

فالأمر خطير وربما يكشف عن حدث غريب، فكما كان الأمر حين سمعنا أو قرأنا عنه، عن ذلك الحدث الغريب الذي تناقلته العديد من الصحف الفرنسية والغربية وتحدثت عنه طويلاً في حينها، أنه وفي عام 1964, حين جاءت رسالة مجهولة تتحدث عن إمكانية قدوم أو حتى مشاهدة أقوام غريبة، كأنها جاءت من السماء أو من أكوان أخرى وهبطت على الأرض، وكان الأمر غريباً حينها، هو كذلك، كما يبدو الحال عليه وما يحدث الآن، فهي تحمل سمات بعضهم....!!!

كامبل:

ما الذي تتقول به الآن...!!

إنه هراء وكلام فارغ، لا يليق بك كقائد عظيم تمثل دولة عظمى أن تقوله، كما لا يليق بي كذلك أن أسمعه.!!

فنحن من نمتلك الكثير من العلم والقوة وكذلك نمتلك السحر الأسود والشعوذة، وطالما جعلنا ونستطيع أن نجعل الجميع يدورون في فلكنا, لا عليكم، إن كل شيء سيكون مدمراً، إنه الجواب الشافي لكل مشكك بقدراتنا, لأننا وإن أبدينا تعاطفاً مع الآخرين ممن يسكنون مستعمراتنا إلا إننا وفي داخلنا لابد أن ندمرهم وندمر كذلك الأرض التي يعيشون عليها، ولكن مع مرور الوقت فإن تخوفنا يزداد أكثر، إذ يمكن للجنون الذي نكنه للآخرين، أن يضيع منا الأرض كلها، حتى أرضنا التي نعيش عليها، لأننا دمرنا الآخرين بلا رحمة.. ورد الدين قادم لا محالة...... شئنا أم أبينا!!!
كلام لا أقتنع به أنا وإن كان يبدو للآخرين وفق الوقائع كلاماً مقنعاً....!!
كما أن هناك من يعتقد أو يتنبأ بأن مدينة الرذيلة والجمال والبغي المحرم بالدم، تلك المدينة الواقعة في نيفادا، ستختفي عاجلاً أم آجلاً، كما اختفت توأمها الروحي وإلى الأبد، مدن عمورية وسدوم22 حينها سيكون الأمر كذلك حادثاً بهول الحدث الذي أخفى عمورية وسدوم, لا محالة، هذا ما أخبرنا به الساحر العظيم عازر23.!!، كما أن الحلف القائم والذي أضحى اليوم حلفاً متهرئاً، لم يعد قائماً, بين الحلفاء الشريرين ومنذ حين، وهو لا يمكن أن يكون بالنبوءات بل بقوة الفعل التخريبي والفعل العنيف، وما عليك إلا أن تتحرك وبكامل قواتك الفضائية والنووية والجرثومية، لضرب أركان المملكة القديمة، لأنها مركز النبوءات والحقائق وهي كانت كذلك، وطالما كنا نتحين الفرص لتدميرها في أي منازلة حدثت على مدى السنوات السابقة، وكل خططنا للإيقاع بسلاطينها كانت مرسومة وبدقة، فنحن نعرف عنهم ونعرف من يكونون كما أخبرتنا عن ذلك الرسل في كتابهم المقدس, وإن هدف وجودنا في تلك الأماكن ما كان إلا انتظاراً لما سيولد هناك من أمل أو أي بارقة أمل, فنحن وكما كان يفعل غيرنا عندما كانوا ينتظرون قدوم النبي موشيه24 ليقتلوه.... فنحن نمثل تلك الوجوه نفسها ونمارس الخطط ذاتها، ولكن نحن من زمن آخر.
ويليم ستيفن:
وهو أحد القادة الإنكليز في الحلف، وقف صامتاً مبهوتاً لما يسمع، وهو يشبك يديه فوق رأسه، لقد كان أمراً هائلاً يا سيدي، نعم إنه أمر مهول فعلاً..!!
فقد أصبحت إحدى قواعدنا الكبيرة والأكثر فخراً في أسطولنا والتي نعتبرها تاجه الحقيقي والمرصع، وهي تضم ما يقارب ستة آلاف طائرة, لقد أضحت كالرماد وخرجت عن العمل، إنها كارثة حقيقية، ولا يستطيع أحد ما تفسير ذلك، أو أن يتصور كيف حدث ذلك الأمر، وبشراسة وبدقة متناهية، ونحن نمتلك القوة والسرابنيات ومئات الآلاف من الحوسبة الحربية، وهو ما لم يمتلكه غيرنا ولكن دون جدوى، لم تعد تلك المملكة العظمى التي لا تغيب الشمس عنها، وهي كذلك غائبة منذ حين ولا تزال.

21 - طبع في ٢٥ أبريل ١٥٠٧ كتاباً بعنوان «مقدمة في الكوزموغرافيا» (Cosmographic Introduction)، يستعمل فيه لأول مرة اسم أمريكا المقتبسة من اسم أمريكو فسبوشي لينعت به اسم الأراضي المكتشفة للعالم الجديد، ويتساءل المؤرخون لماذا اختار مارتن فالدسميلر اسم أمريكا عوضاً عن كولومبيا، تتضح الأعجوبة عندما نعلم أن رحلات فسبوشي لأمريكا الجنوبية كانت معروفة أكثر من رحلات كريستوفر كولومبوس وتتميز بمصداقية كبيرة، المصدر ويكبيديا.
22 - سدوم وعمورية كما جاء في العهد القديم هي مجموعة من القرى التي خسفها الله بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد، وفق ما جاء في النصوص الدينية، والقصة مذكورة بشكل مباشر

وغير مباشر في الديانات الإبراهيمية الثلاث، الإسلام والمسيحية واليهودية، وكذا الحال سيكون مع مدينة لاس فيجاس التي تقع على خط العرض نفسه، بحسب رؤية المؤلف.

23 - من سحرة اليهود، بحسب تخيلات المؤلف.

24 - يقصد به النبي موسى (ع).

التوكل بالإنابة.........
في جبهة أخرى غير تلك التي اتجهت إليها الخيول المجنحة كما كان يسميها أحدهم, نحو الأراضي التي يسميها ماركوبولو25, هناك في أقاصي الأرض حيث مملكة كاثاي، تلك الإمبراطورية الوسطى الصفراء, حيث تدور رحى نزاع كبير وعنيف، حيث تشنّ قواتها العديد من الهجمات المدمرة محققة العديد من الانتصارات الباهرة في نزالات مستمرة للسيطرة على المياه الدافئة، جعلت من طريق الحرير الجديد حقيقة، وآن له أن يعود وينهض من جديد.
لابد لها وأن تعود إلى أحضان الوطن، لقد حان الوقت لذلك الآن, كالنعامة التي وضعت رأسها في الرمال الجرداء وإذ بها فجأة ترفع رأسها لتنظر في ذهول بالغ، فترى ذلك الطائر الصغير كيف أصبح اليوم يحلق مستخدماً مهاراته في السماء الملبدة بالغيوم، يستعرض أجنحته الرشيقة والضخمة، مغتراً بقدراته، بهذه العبارة الصريحة فهم القائد... قائد الأسطول السابع المرابط في مضيق فورموزا في بحر الصين الجنوبي مغزى ما ألمح إليه القائد الصيني... حين كان يتنقل بين أجنحة إحدى المؤسسات العلمية العالية وقاعاتها, وهو يستعرض أبرز الانتصارات القومية، ويبدو منتشياً, نعم كان ذلك وهو يتجول مع وفد من الطلبة المتخرجين حديثاً من إحدى الجامعات الصينية في علوم الفلك والفضاء الخارجي, حدث ذلك في مركز جيوكوان العلمي التخصصي.
وفيما هو يشاهد ذلك الحدث بشكل مباشر، وينظر حوله باستغراب وفضول كبيرين، بل وبألم وحسرة بادية في عينيه، ينظر إليهم عبر إحدى الشبكات التلفزيونية الصينية المحلية والملتقط بثها في إحدى القواعد العسكرية المنتشرة في بحر الصين الجنوبي, يشاهد ذلك البث الحي، وهو الذي بدا له قبل أيام معدودة، أن الحدود آمنة وشديدة التحصين في تلك الجزيرة الحليفة, والآن بدأت تنهار هي الأخرى وستصبح عاجلاً أم آجلاً في عداد المفقودات، كما فقد غيرها الكثير هذه الأيام، كما أن استعداد السلطات الحليفة فيها للقيام أو قيامها فعلاً بحرب خاطفة حرب التوكل بالإنابة أصبح لا يعد أمراً واقعياً أو مفيداً بل وخاسراً أيضاً، وقد أبيد الكثير منها عن بكرة أبيهم، ولابد لنا نحن وفقط نحن من الظهور بشكل مباشر للتعامل مع الخصم.
وهو مشغول هكذا في التمعن في مختبرات المركز الفضائي للعدو، والذي بدا له أنه حلم القرن الجديد وكأنه قد أجبر على القبول، بحيث أمسى في مهب الريح وخارج اللعبة برمتها, فلم تعد تلك التنانين نائمة في سباتها فقد تحركت وأي حركة كانت، بل أصبحت تسير في مسار آخر غير الذي تعرف أو نعرف نحن عنها....!
في المقابل كان هناك القائد، وهو جالس بفخر وكأنه يعلم بأن أعداءه يشاهدونه الآن وهم الذين سمحوا بأن يبث بثاً مباشراً، وكان يشرح وعبر تقنية الجي فايف G5 والتي أسسها رن تشانغ فاي، تلك الشركة التي كانت بمثابة البعبع المخيف في سوق السبرانيات ولأنها مثلت تاريخ نهاية أسطورة بلاد الهجين، وهو كذا، يشرح وبثقة واضحة على محياه ويوضح وخلفه تلك الخارطة العظيمة الجيوفضائية، وهو يؤشر على إحدى النقاط، ويقول لهم:
إن هذا المكان أصبح كالجوهرة المفقودة26 بل المسروقة من عنق فتاة جميلة وقد عاد إليها, والأمر لم يعد الآن كما كان سابقاً، عندما كان محتلاً منذ السنوات العجاف السابقة، فالسارق تقطعت يداه وأطرافه كاملة كما تقطعت أطراف الخونة المارقين، هذا المكان العزيز لم يكن ولن

يكون آمناً إلا كما هو الآن، إنه الآن تحت جناح الطائر الرشيق تحت قلب الأرض الكبيرة، فهو الجزء العزيز علينا مثله مثل أي جزء آخر من العائلة الصينية العظيمة، إنه عائد إلينا لا محالة، وما عليه إلا أن يدخل معززاً مكرماً بيته الكبير, مرة ثانية أقول إن التضحيات كانت كبيرة وعظيمة والنزاعات كانت مؤثرة، وأبدى فيها مقاتلو مملكة شانغ المقاومة والإصرار حتى تحقق لهم النصر العظيم الذي تنتظره كل الصين كما كان ذلك في السابق، وإن نهاية العدو ستكون ابتداء من هذا المكان العزيز والعائد إلى البلد العظيم، كما عادت جزر سبراتلي27 هي الأخرى إلى حضن الأم الكبيرة...!!

ثم أردف قائلاً: الزمن الحالي لكم، افهموا هذا، موجهاً كلامه إلى الطلبة الفرحين ببلادهم, فلم تعد الحرب السبيرانية حكراً عليهم، ولابد أن يكون الواقع كذلك، وهو أمر سار ومفرح جداً، ولكن لدينا أخبار أكثر سروراً، إن حضارتنا قادمة إلى البزوغ مرة أخرى، ولكن هناك حضارة أقدم منا.

وأكثر نجاحاً منا، أمم هي الأخرى تحارب جبهة الغرب الأوسط لحدودنا الغربية، وقد أذاقت المر والإهانة والخذلان والخسران المستمر للعدو المشترك لنا مثلنا نحن, ولابد لنا أن نعزز علاقاتنا وحضاراتنا المشتركة معهم ولا مكان للغفلة مرة أخرى، ليعود الحرير إلى جادة الطريق مرة أخرى، وعلينا أن نتحد معاً وبقوة، فلابد للاعبين أن يخترقوا العدو مجتمعين, فالمسألة لم تعد تنتظر التأخير أكثر، والمبارزة قادمة لا محالة، وستكون بمختلف الأسلحة التقليدية وغير التقليدية...!! فكما أطلقت جذوة الحضارة لأول مرة في تلك المملكة ذات الجهات الأربع، سيكون الزمن وفق التيسير اللحظي حاضراً أمامنا مرة أخرى وسنكون معهم، ونحن الأكثر، متهيئين لذلك الأمر. إن بحركم اليوم هو أشد الأماكن خطورة، ولابد وأن تكون لنا اليد الأطول هنا، وعلينا المسير نحو الشمس والمسير نحو الشرق عبر المحيط الهادئ، سنسير عبر الشمس لأننا سنجعلها تشرق بنا!!...

إن الكثير من نقاط التوهج المميت في أرجاء عديدة من هذه المعمورة, لا بل كلها كانت بسببهم، كما هو الحال في كشمير أو في مواقع أخرى في هذا العالم كمنطقة الشرق الأوسط.

عاد القائد.. وهو يشبك يديه خلف رأسه، ويقول لأقرب مرافقيه: نعم، أعترف الآن، فربما تحققت نبوءة مايلز كوبلن28 حينما قال: «لم يعد اللعب وصانعو اللعب يقتصر علينا», ولم نعد نحن فقط من يلعب في ساحة اللعب, لقد تقلص عدد المشاهدين بشكل مثير ولم يعد بيع التذاكر مربحاً لنا، فقد أصبح كثير منهم لاعبين مهرة، وبعضهم لا يلتزم بقواعد اللعب، وقد سيطرنا على الأرض، بطرح الورق المزيف لنجمع دون رحمة الأصفر الرنان، هذه حقيقة ما نفكر فيه وحليفنا الصغير.

ونحن كذلك حاولنا أن نعمل المزيد، ولكن كل هذه الأمور.... مستدركاً:

ولكن حين تنجح روسيا في ضرب أمريكا واستدراجها في حروب تخوضها بنفسها وليس عبر حلفاؤها، نعم سنكون حتماً في حرب مفتوحة معها ومع قوات غير نظامية حيث إننا وقعنا في المأزق ذاته مثلهم، كما أوقعنا روسيا في ثمانينيات القرن الماضي، نعم فقد كنا الأسبق في وضع روسيا في مأزق أفغانستان حين لا تزال تلك الحليفة تدفع بنا دفعاً لضرب الآخرين والاشتباك هنا وهناك, وا أسفاه لقد غلبنا الطمع وشربنا من الكأس ذاته, سنكون في حرب مفتوحة لا رابح فيها، بل الكل خاسر، إنها لعبة الأمم المفتوحة.

وفي تلك اللحظة من الزمن، اللحظة ذاتها التي كان القائد يتكلم فيها مع أحد مرافقيه، اتصل به قائد آخر يعسكر في إحدى وحدات الاستطلاع القريب، ليخبره بحدوث أمر رهيب، فقد تم مشاهدة

مركبات وصواريخ تخترق القوات المرابطة في خليج الصين الجنوبي، ويخبره:
سيدي نحن غير قادرين على الرد، إنها آلات تشبه آلات الزمن, فقد تم تحويلنا وكأننا مسافرون نحو الزمن الآخر وعبره، لقد واجهتنا قبائل وشعوب لا تعرف التعب ولا تكل أو تمل، إنها تحارب بكل ما أوتيت من قوة, بل إنها تملك قوة مفرطة لا مثيل لها. وهو مستمر في الحديث مع ذلك القائد، كان هناك أزمات تتزامن مع حدوث أمور أخرى مخيفة، فالأرض تعاني بعض التغيرات والاحتباس الحراري والانهيار الصناعي، وأصبح الأمر وكأنه أمران واقعان مترابطان، فالحرب الاقتصادية وكذلك الحرب الأهلية قادمة إلينا لا محالة, فلا يزال شبحهما قائماً وبشكل كبير جداً، فقد حدثت أمور كبيرة ومهمة، فالديون ارتفعت وكذلك الكساد الاقتصادي عاد وظهر مرة أخرى، وهو يمثل فزعاً كبيراً لنا، وقد بدأ تغيير الجدول الزمني للحضارة وكأنه يرجع إلى الخلف، وفي الوقت نفسه هو موضوع غريب الأطوار...!!
في هذا الوقت المتأخر من الزمن ظهر محمد صديق صابر.
محمد الذي يبدو أنه قادم من أرض تلك المملكة القديمة، جاء يبحث عن صديقه القديم في هذه الجزيرة النائية في بحر الصين الجنوبي.........
وفيما هو كذلك فإذا بصديقه أو كما يخيل له ويبدو أنه صديقه, وقد يكون صابراً آخر من جينات آسيوية مقاتلة تعود بأصولها إلى حضارة الشين بين.
فاجأه بالقول:
أهلاً بك هنا يا صديقي، نحن هنا في مهمة مقدسة، حيث أنا هنا مع أصدقائي وشعبي.
قال ذلك دون أن يعي ذلك الأمر الذي كانا يتحادثان عنه, ومنذ زمن ليس بالقريب, حيث كان مع صديقه الآخر..
ثم أردف قائلاً:
ما الذي جاء بك إلى هذه الأصقاع البعيدة عن الأهل..؟؟
محمد:
كم أنا مسرور بك وسعيد بلقائك مرة أخرى، فقد مضى ما يقارب العقدين منذ أن افترقنا آخر مرة في تلك الليلة المشؤومة, أين كنت كل هذه الفترة؟
تجاوب معه وكأنه صابر ذاته!!
فقد كانا مشتركين في الخواطر، ربما كان واحداً منهم أو ينتمي إليهم, مجموعة الصابرين الخيرين.
قائلاً له:
وأنا سعيد بلقائك أيضاً, فما جئت لأراك وحسب يا أخي..
ولكن لتجد الإجابة حاضرة عما كنت تسأل عنه...!!
في حوارنا السابق حين كنت أرغب أن أخبرك وأصارحك بشيء ما، وفيما أنا أتحدث إليك ببعض الأشياء المهمة التي حصلت لي أنا أيضاً، بهت صابر وكأنه استذكر ذلك الحوار أو كما يبدو له حين تبرمج وبمحاكاة روحية مع صابر الآخر الذي لا يزال يحارب العدو المشترك في أرجاء تلك المملكة القديمة من أرض ميسوبوتاميا، مستمعاً لما كان يحاول محمد قوله من تلك الأشياء أو بعضها حينها, ولكن حدث ما حدث، ثم استرسل قائلاً:
هل تتذكر الحوار الذي دار بيننا، والذي كان بعد أن اختفيت وأصبحت مريضاً لا تقوى على الحركة.

نعم أردت ذلك فعلاً ولكن وكما تتذكر, حين شعرت بأن عليّ أن أخبرك بالأمر, تعالت الأصوات في الخارج دون أن أتمكن حينها من إخبارك بما يختلج في صدري من حقائق وأمور حدثت لنا نحن الاثنين, فالأمر كان مهماً ولا يزال رغم هذه السنوات، والذي حدث لنا لا يمكن السكوت عنه، لقد أردت جاهداً وما زلت أريد أن أحدثك عنها؟

وإذ هما كذلك، فإذا بإحدى الطائرات المعادية تهوي وكأنها تسقط فوقهما، بحيث جعلتهما يبدوان كأوراق تتناثر في الريح.........!!!

وإذا بهما يتساقطان في أماكن أخرى غير التي كانا فيها منذ حين...!!!

حين كان محمد يهم أن يقول لصاحبه أو لروح صاحبه أو شبيهه، عن أمر الشرائح التي زرعت داخلهما في ذلك اليوم الخريفي من عام 2020 حين كان قادماً من باريس في زيارة ابن عم له هناك، فقد تم زرعها له ولصديق له يدعى سعيد، وفيما نحن كذلك أصبنا بنوبة حمى شديدة دخلنا على إثرها المشفى القريب من العاصمة بيروت, حيث التقى محمد بصديقه الذي كان يخيل له أنه يعرفه حيث دخلا سوية إلى ذلك المشفى التابع إلى الجامعة, وعندها تم زرعهما بالشرائح المميتة ذاتها، نعم لقد تم زرع تلك الشرائح التعريفية فينا, ولكن عندما عدت إلى البلد ومن ثم إلى المنزل الذي كنا نشغله معاً في تلك المدينة الساحلية، لم أكن معك بل كان هناك شخص آخر شبيه لي يدعى بالاسم نفسه، وهو من قام بمعاينتك خلال غيبوبتك, وحين اكتشف وجودي غاب بسرعة, وإذا بهم يدخلون البيت وبعدها تعرف ما الذي حل بنا، وفيما أنت كذلك قام الشبيه بتسجيل كافة البيانات الخاصة بك, وببحثك المتقدم، وتم تطوير ما تم تسجيله عبر برامج خاصة استخدمت فيما بعد لتوجيهك وتوجيهي عبر الشرائح والرقائق الالكترونية بنظام الجي بي اس GPS، وكما أنت هنا الآن فقد تم تحريكنا عبر ذلك النظام، وأنا الآن أتحرك معك وفق الترددات والأهواء ذاتها، فنحن الآن داخلين ضمن برامج الحرب الصينية الأمريكية وضمن برامج ونظام الأسلحة البيولوجية والأسلحة النووية. فيما نحن كذلك فقد كنا هنالك، حيث شهدنا زلزال لوس أنجلوس في كاليفورنيا, كما شهدنا كيف غرقت المدن الأمريكية فقد غرقت معظم مدن الولاية ولم يعد الكثير من سكانها قادرين على العيش في كاليفورنيا وأخذوا ينزحون منها, حينها حدث أمر عظيم، فقد بدا لي أن الشريحة التعريفية التي أحملها لم تعد تعمل وفق النظام التعريفي, ولكن هذا الحدث جاء بعد فوات الأوان، فأنا الآن في مهمة شبة انتحارية في هذه الجزيرة المنكوبة وكذلك أنت.

حين كان الأمر يتعلق بالخلاص منا، وبكيفية تخليص العالم، كما يدعي مايكل ماكنتوش29، وكما ادعى غيره.

وذلك نهاية سنة 2020، إلا أن ماسك30 هو من يسيطر على قواعد اللعب حتى الآن، القواعد التي يريدها أن ترسى على القمر والمريخ، مستغلاً للنظام الشمسي دون رحمة........!!

25 - ماركو بولو (بالإيطالية: Marco Polo، ولد في 15 سبتمبر 1254م في البندقية بإيطاليا، وتوفي في 8 يناير 1324م في البندقية). هو تاجر ومستكشف من البندقية، كان هو وأبوه نيكولو وعمه مافيو أول الغربيين الذين سلكوا طريق الحرير إلى الصين، والتي أطلق عليها اسم كاثاي، المصدر ويكيبيديا.

26 - يقصد بها تايوان، أو ما تسمى بالصين الوطنية.

27 - جزر سبراتلي هي أرخبيل يتكون من مجموعة من الجزر الصغيرة المرجانية غير المأهولة الواقعة في بحر الصين الجنوبي بين كلٍّ من فيتنام والفلبين والصين وبروناي وماليزيا، وتبلغ مساحتها حوالي ٤ كيلومترات مربعة موزعة على ٤٢٥٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من البحر, المصدر ويكبيديا.

28 - مايلز كوبلاند Miles Axe Copeland Jr ضابط في وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA، كما أنه رجل أعمال، وموسيقار، صاحب كتاب «لعبة الأمم». المصدر، ويكيبيديا.

29 - ماكنتوش، صاحب كتاب «مسافر عبر الزمن».

30 - إيلون ماسك: رجل أعمال كندي، حاصل على الجنسية الأمريكية، ولد في جنوب أفريقيا، مستثمر، ومهندس، ومخترع. مؤسس شركة سيبس إكس، ورئيسها التنفيذي، والمصمم الأول فيها. والمؤسس المساعد لمصانع تسيلا موتورز ومديرها التنفيذي والمهندس المنتج فيها. شارك في تأسيس شركة التداول النقدي الشهيرة بايبال، ورئيس مجلس إدارة شركة سولار سيتي. ويكيبيديا.

عبيد الحقل..........

لقد بدأت النظم الكمية في النظام الشمسي والأكوان الأخرى وفق النظريات العلمية تتهاوى، ويبدو أنها ستنتهي في لحظة من اللازمن..!!!

هنا ظهر عبد الله الملك الذي لم يكن سوى عبد من عبيد القصر البابلي القديم أريد له أن يحمل لواء التغيير في العالم الجديد مرة أخرى, وهو كذلك الذي يدعي بأنه سيصبح الملك الجديد القادم للحكم في الزمن الجديد ليكون ملكاً للجهات الأربع، ولكن حين بدأ التغيير بدا عليه أن الروح التي يحملها ويؤمن بها, لم تعد تلك التي يحركها الإله, بل بدا له أن الزمن الحالي بل الزمن منذ الخليقة هو للربّ لا غير... حينها قرر أن يخالف الرؤيا والتوقع والمطلوب, وبدأ يبحث عن ذلك العبد لله، عبد الله الذي يأخذ من الحقل مكاناً والزراعة مهنة له, ولكن دون جدوى.....!!

حينها وقف عبد الله الملك* ليبحث في تلك الحقول القريبة من المدينة العظيمة، يبحث عن المقصود والمأمور به ليسلمه صولجانه, لا يريد أن يسلمه لأي واحد آخر، حين بدا الشر يطغى ويأخذ مآخذه منه، شاهد أنه هو المكلف بالأمر لا غيره، نعم هو الذي نريده، هو لا غير، كررها مرات ومرات......!!

وإذا به هو عبد الله الآخر الذي لا يزال يعمل في ذلك الحقل القديم نفسه، وقد كنت أتخيل نفسي أقيم في ذلك الحقل وفي تلك الحقول التي يعيش فيها الفلاحون وهم في حالة قهر شديد، بينما كنت وكانوا عبيد منازل مملكة الجهات الأربع كما هم في تلك الأرض البعيدة، وقد جاءوا بنا من أرض أفريقيا، وهم يعتبروننَا من طبقة العبيد التي لا مكانة لها، لأن العبيد يجب أن يعيشوا على فتات أسيادهم، ويأكلوا بقايا طعامهم، ويلبسوا ملابسهم القديمة...

وهكذا كان عبد الله الفلاح يسترسل في الكلام وهم منتبهون إليه فاتحون أفواههم متعجبين مما يتحدث, فكلّما اجتمعنا نحن عبيد الحقول والمزارع وسعينا إلى تحرير أنفسنا من العبودية والإذلال، عارضتمونا أنتم يا عبيد قصور الممالك القديمة والجديدة، لأنكم كنتم دائماً منتفعون من أسياد كامبل، وكنتم تنقلون أخبارنا نحن عبيد الله الحقيقيين إلى أسيادكم الطامعين بجهودنا دون أدنى مقابل في ذلك المكتب البيضاوي، لتتسببوا لنا بالمزيد من الإهانة والإذلال والقهر، ولتفشلوا حلمنا في التحرّر... إنّكم تفعلون ذلك الأمر لأننا نفكر في الحرية ليس إلا..... بينما أنتم تفكرون في الملذات الزائلة، وترضون بما يُرمى إليكم من فتات بل تستمتعون به, كما هم عبيد أنفسهم في تلك الأمصار الغنية...!

تفاجأ عبد الله الملك بما يتحدث به عبد الله الفلاح.......!!!

وهو هكذا يسترسل في الكلام...

اليوم، لدينا الكثير من عبيد الملوك وفي كلّ مجالات حياتنا، وهم أنفسهم ممن يقفون ضدنا وبقوة، نجدهم حجر عثرة في أي خطوة نخطوها في سبيل الحرية, فالأرض أصبحت مريضة بسبب بشر مثلكم, كما هي دودة الأرض أو النمل الأبيض!

تفاجأ به قائلاً له:

ولكن من تكون أنت، وكيف لك أن تعرفني، حدثني عن نفسك؟

وهو في هذه الحال من التساؤلات...!!

فإذا به يُشد بالسلاسل، ويمسك به أحدهم، ويقول له:
كيف لك أن تتحدث بهذه النبرة غير اللطيفة مع جلالته، ألا تعرف مع من تتحدث؟ إنه مليكك، وعليك طاعته هو لا غيره..
هنا سكت لبرهة، ثم قال:
مليكي الذي أعرفه وأعبده هو واحد، أعرفه وأثق به منذ خلقت الأرض، ومنذ أن أشرقت الشمس على وجه البسيطة، ولا أعرف غيره، أما من كانوا هنا في هذه الأرض منذ ملوك ممالك تلك الأطلال الواقعة قرب حقلي، إلى أن جاء الآخرون من الحكام فأنا لا أطيعهم إلا بما جاءت به دساتيرهم الدنيوية ليس أكثر.......
فقد كان هو معلمي الكبير، وما جاء عنه من مبلغين لرسائله، ما عليّ إلا أن أطيعهم, مهما كانت أوامرهم...!!
هنا طلب منهم عبد الله الملك أن يفكوا قيوده، فهو الشخص المقصود.
أنت الآن تقيم في مملكة بابل القديمة، ولكن كذلك أنت من سيؤول الأمر إليه لأني أتفق معك، فلم يعد لي أن أكون أو تكون، فأنت الآن ضمن سلطة الأستاذ الجديد لهذا العالم الكبير, وأنت من سيقود الأمر وليس أنا, نعم ربما ستصطدم مع الآخرين، وحينها سترون كيف ستؤول الأمور إلى الأرض...
وبينما هو كذلك، وفي لحظة مفاجئة!
ظهر رمزي مرة أخرى، ولكنه حضر برفقة شخص ما؟ إنه القائد الأمريكي...!
هنا صاح صابر وهو يراه، والملايين تراه كذلك عبر شاشات العديد من القنوات الفضائية......
حيث تم تقديمه على أنه قائد عسكري أمريكي متخصص في العلوم السرية......!!!

قاتل الكلب......... أم مطعم القاتل؟

بعد ليلة عاصفة من الذكريات خرج وهو يمتطي دابته في حقله البائس يبحث عن فرصة جديدة تجعله يطور حياته التي يعيشها، فهو قد أضحى أسيراً بين هواجس الماضي البعيد وبين خيال الأيام الجديدة، خرج من داره التي لم تعد كما كانت من قبل, فلا أنيس أو رفيق عمر أو أبناء يملؤون عليه حياته، ما يحركه سوى أمل تبقى له مما يملك من هذه الأرض المقفرة, عاد ليستعرض مسيرته المتعثرة وأسباب ذلك التعثر، كان هذا اليوم واحداً من أيام شهر تموز اللاهب بحرارته كما هو دائماً، في بلادي حين كانت هذه الحرارة ولا تزال بمثابة موّلد لحرارة المتطفلين الذين يشعرون بالغرور حين تحدث التقلبات والانقلابات فيه، هل لها علاقة بما يشعر به الإنسان من لهيب درجات الحرارة حين تصبح أعلى من معدلاتها، وبالتالي تجعله يعبث بما يمتلك وبما لا يمتلك، فكثير من العبث كان حين يصبح الشعب يوماً على أصوات المدافع والدبابات ويظهر بعدها مذيعو الشر ليعلنوا أن فلان الفلاني قد انتابته صرعة من الحرّ قرر على إثرها العمل على تغيير النظام السياسي للبلاد، فهو وكما يبدو أنه قد سئم الوضع والوجوه...

وإذا هو كذلك يتمشى على استحياء في حقله, وقد كان قادراً على سماع أصوات بدت له قريبة جداً، شاهدهم يركضون باتجاه ذلك النهر الصغير الذي يروي حقولهم كما يروي حقله، فحاول أن يستوقفهم، كما حاول أن يتكهن بما يحدث، لكن دون طائل، فلم يأبهوا له بل لم يكن لديهم سبيل من ذلك وهم في سيرهم السريع بحيث تجاوزوا الكثير من البيوتات الريفية، كان يتبعهم وهم في طريقهم دون أن يشعر أحد منهم به, شعر بالحرج وبدأ يركض معهم دون أن يعلم إلى أين هم ذاهبون, ثم من هؤلاء، كأنهم أغراب عنه لا يعرف أحداً منهم....!!!؟؟؟

ولكن وهو هكذا يتكلم في سره، لا بأس فإن الأمر لا يعنيني, عاد وقال:

ربما الحشر مع الناس، يأتي بأخبار سارة، كما يقال، وأخذ يعدو سريعاً وأضحى كأنه لم يكن قادراً على التوقف، استدار على نحو مفاجئ وإذ به يشاهد أنهم قد توقفوا فجأة ومنذ حين، وهو لا يزال يعدو دون وجل، حاول أن يتفاءل قليلاً، ربما الخطر المحدق بهم قد زال، يفكر هكذا دون أن يعرف، تلفت مرة أخرى ليستطلع الأمر وهو يهم بأن يعود أدراجه فوجدهم قد اختفوا جميعاً ما بين البيوتات القديمة.

يا إلهي من هؤلاء؟

ولماذا كنت معهم؟

وهل كنت أسير بوعي مني أم لا؟

عاد يتساءل وفيما هو يشعر بالندم والخوف, وإذا بدوامات من رياح حارة تعصف في وجهه كأنها نيران تستعر بالكثير من الوقود, فقد كانت كذلك، أسقطته على الأرض من شدة التعب والعطش, حينها تملكه إحساس بالتعب المضني وشرود ذهني كامل، وإذا به يقف أمام أحد البيوت المقفرة والبعيدة عن حقله، وقد مضى وقت ليس بالقصير وهو يعدو، خطرت في باله العديد من الأشياء، حاول أن يستجمع القليل من قوته الزائلة، إلا أن دقات قلبه المتعب قد ارتفعت هي الأخرى فأصبح التنفس صعباً, حاول أن يلتقط أنفاسه بصعوبة، ولكن دون ذلك فقد استسلم لقدره، وها هو الآن يحاول أن يدخل إلى المستقبل الذي غادره منذ زمن حين كان في تلك المملكة القديمة التي التقى

فيها عبد الله الآخر, وهو كذلك ودون تفكير قرر أن يدخل إلى هذا البيت القريب, مهما كانت النتائج، ولأول مرة كأنه أدرك أنه في عالم آخر غير العالم الذي يعيش فيه، فهو الآن في مكان لا يعرفه أو يتذكر أنه قد شاهده من قبل بالرغم من سني عمره الطوال في هذه المنطقة وهو الذي يعرف الصغير فيها والكبير, إلا أنه بدا له وكأنه يسير في غابة من الأحراش اليابسة التي لم ترويها المياه منذ أمد بعيد وتتعرض لأشعة الشمس الحارقة، وفجأة وجد نفسه داخل هذا المبنى القديم، وكأنه حوامة قديمة كما تبدو ملامحها من الداخل.

وفجأة وهو كذلك فإذا بهم!.

خرجوا إليه من باب جانبي، كانوا عشرة أو يزيدون بواحد, ناداه أحدهم كأنه الحاجب، حاجب المحكمة وهو طوال سني عمره لم يدخل أي دار للحكم، وكان كثيراً ما يردد، اللهم أبعدني عن الحاكم والحكيم.

قائلاً له:

اجلس هنا دون أن تتكلم أو تنطق بشيء, إنك الآن في محكمة الثورة العليا، وما عليك إلا أن تقبل بالحكم أياً كانت نتائجه، نظر حوله وشعر بصواعق نزلت عليه مرة أخرى ودفعة واحدة، حاول استرجاع أشرطة حياته كلها، لم يتذكر أنه كان فاعلاً للشر أو قاتلاً، بل ولم يكن حتى جاسوساً حين أصبحت تلك المهنة مربحة، وقد كانوا يتباهون أنهم يمارسونها، فالكثير من أبناء قريته والقرى المجاورة حين ينزل العدو في هذه الربوع المحتلة أوائل القرن الجديد، كانوا يقومون بالإخبار عن المقاومين، كل هذه الصور عادت به ليستذكر المؤلم منها والمفرح, ولكن لسان حاله يقول، لم أتذكر شيئاً يجعلني مذنباً, إذن من هؤلاء، ولماذا أنا هنا وسطهم، ولماذا يريدون أن يقتصوا مني؟

كما لم أتذكر أني دعست طفلاً أو نملة, ولم أتذكر أني تجاوزت على جار أو فلاح برزقه حتى حين كانت النزاعات تحدث حول توزيع حصص المياه بين الأقوياء والضعفاء من القوم، كنت أنزوي في خانة بعيدة وأتقبل قراراتهم وأرضى بأي نصيب يلحقني، إذن ما عليّ أن أفعل وأنا بهذه الحال من الرعب والخوف من المجهول, ما الذي فعلته ولم أتذكره، ربما يعرفون أكثر مني، أليست السلطة بأيديهم والقانون يطبقونه كما يشاؤون أو يجعلونه كما يريدون، ربما وشى بي واشٍ، أو ربما بدر مني شيء ما دون أن أتذكر....!!

وهو هكذا يفكر ويتذكر، فإذا به يجد نفسه جالساً وأمامه شيء غريب يحدق فيه ويؤشر إليه للانتباه لما يعرض على تلك المرآة الكبيرة، وهي تبدو وكأنها شاشة من الكريستال، وإذا به يجد نفسه وكأنه داخل في تلك المشاهد التي تعرض وفي كثير من اللقطات, فنسي نفسه، أهو ذاته، أم هو شبيه شبه له، ولكن كثيراً من المواقع والأماكن هي المواقع ذاتها التي يتذكرها جيداً، إنها مشاهد مألوفة بالنسبة إليه ومناطق طالما تردد إليها.

انظر واصمت، أحدهم قال له:

ولم يستطع أن ينبس بكلمة....، فليس له أن يقول شيئاً.

وإذا به وهو كذلك والشريط يستعرض حياته كلها, وما صادفه من مواقف وحروب وقتال...

يظهر أمامه مشهد حزين يستوقفه, تبدو فيه زوجته التي فارقها منذ زمن بعيد وهي تعاتبه عن أمر ما، ربما عن شيء حدث لأحد أبنائه، لقد كان الشريط صامتاً، ولم ينطق فيه أحد إلا هو فقد أصبح ناطقاً وشاهداً على نفسه، فهو يتذكر كل كلمة وكل جملة قيلت، يتذكر ما كان وكأنه يعيش المشهد حقيقة.

وإذا به هكذا خيل له أن أحدهم كان جاراً له كان يأتمنه على حلاله وبيته. وفي إحدى الليالي من شهر نيسان من عام الخيبة والخسران وإذا به يقتل كلباً لهم نعم إنه جاري، قتل الكلب الذي كان أعز من نفسه، حينها تذكر ذلك الأمر، كان شديد الحزن لفقدانه وكان في سريرته يتوقع أن رصاصة طائشة قتلته جاءت من بعيد أو ربما جاءت من أحدهم، وهم كثر في تلك الأيام الحزينة والبائسة، نعم قد يكون أحد الأفراد من الجنود المحتلين لبلدي, حينما كانوا يداهمون القرى والبيوت يبحثون عن المقاومين أو عن أشياء أخرى، حينها لم يفكر كثيراً فيما أصاب الكلب ومن قتله، وكان أمراً شبه منسي، وسيان له وللآخرين، فقد كانت الضحايا لا تعد ولا تحصى, ونسي الأمر مثلما نسي غيره فقدانهم لأحبائهم وأولادهم وعوائلهم ممن أبيدوا عن بكرة أبيهم سواء بالقصف أو بالتفجير، وكثير من هذه الحوادث اليومية كانت تسجل ضد مجهول، في حين كان القاتل واضحاً مثل شروق الشمس.......!!

وبينما هو يسترسل في المشاهدة، فإذا به يجد الصديق العدو هو الجار نعم, إنه يحفر حفرة كبيرة في أرضي.. يا إلهي، ماذا، انظروا ماذا يفعل؟؟

أهي الحفرة نفسها التي رأيتها ورآها الآخرون حين كنت أتنزه يومها, تلك الحفرة التي كانت مملوءة بالنمل الأبيض، نعم إنها نفسها..!!!

ولكن لماذا يحفرها عميقاً، والكلب المسكين كان أشد الحراس عواء، وهو لم يعد كذلك، يحفر ويحفر، وفجأة يجده يحمل كنزاً، نعم إنه يحمل ذلك الكنز، ماذا يوجد في داخله، ولكن أليست هذه أرضي التي أعرف أم لا؟

ألم يكن هذا لي؟ ولكن لماذا فعل ذلك؟

ونحن كنا قد تعاهدنا، عاهدني وعاهدته وعاهدت غيره، أن نحيا بلا خيانة، نحيا كما كان يحيا آباؤنا وأجدادنا..!!!

إنه يحمل الكنز ويقدمه لهم، نعم كانت هذه المفاجأة أشد إيلاماً، مما قبلها، وقد سقطت على رأسي كما تسقط الصاعقة من السماء الدنيا.

إنهم أنفسهم الذين غزونا وقتلونا، إنهم أنفسهم لا غيرهم، ألا تنظر.....

جاءه الخبر اليقين، نعم إني أنظر، وا أسفاه أني لم أقتل قاتل الكلب،

لم أقتل قاتل الكلب......!!

القاتل الذي ساهم في قتلنا جميعاً، كما يريد أعداؤنا، ولا نزال نقتل بدم بارد بسبب خيانته، فهو واشٍ، وهو كذلك خائن.... وا أسفاه...

ولكن هل لي بسؤال يدور في ذهني، وأرجو أن تجيبوني ولا تجعلوني صامتاً مذهولاً كما الآن بسبب ما شاهدته من مآسٍ مرت وتمر علينا...

أحدهم، قل ما عندك:

ثم استرسل, ولكن لا يمكنك أن تسأل سوى هذا السؤال دون غيره، أفهمت.

سيدي: نعم هو سؤال واحد لا غير.

هل لكم أن تخبروني عمّا حلّ بأولئك الناس الذين كانوا يركضون معي بسرعة، ثم اختفوا فجأة؟

حسناً، إنك تبحث عن الحقيقة، ونحن لابد أن نجيب كما وعدناك.....

كانوا يريدون أن يلحقوا بقاتل كلبك، لأنهم قد اكتووا بالنار ذاتها التي اكتويت بها، ولكنه لم يعد موجوداً بينكم، أما هم فقد أبيد جلهم ولم يبقَ منهم فرد واحد، نعم أبيدوا عن بكرة أبيهم، قتلهم

الآخرون الذين يمتلكون اليوم التلمود كما يمتلكون الرنان31، ونحن الذين نجيناك منهم وليس أحد غيرنا, لأننا نعرف من تكون وكيف ستكون، وهذا أمر لنا فيه حديث وشأن آخر.......
أما قاتل كلبكم، فقد أضحى عزيزاً منعماً بالمال والحرير, عند قوم آخرين, لديكم معهم في الحقيقة الكثير من المشتركات، ربما كانوا إخواناً لكم بالاسم فقط، نعم فهو يقيم في ديارهم ويتزوج بنسائهم، جزاء لما فعل ومكافأة له لجعله بلادكم أسيرة كسيرة، فيها من البؤس والشقاء الكثير، هم أنفسهم آووا القاتل وهم قبل ذلك جعلوه سارقاً مارقاً، قاتلاً للتاريخ وقاتلاً للوطن.........
ولكنك ستبقى كما سيبقى أقرانك سائرون دون هدى، كما سار الآخرون أربعين عاماً دون وعي، طالما أنكم لم تنالوا من قاتل الكلب, وقد كان الأحرى بكم أن تقتلوا «مطعم قاتل الكلب»، فهم الخونة والأكثر إيلاماً لكم إن كنتم راغبين أن تظهر العدالة..........

31 - يقصد به معدن الذهب.

العرض انتهى إلى حين آخر.......
استدار عبد الله الفلاح بعد أن أخذته نوبة من فقدان الوعي حين شاهد في ذلك الشريط كيف تم قتل الكلب الأوفى في تلك الليلة الظلماء، وأين أضحى القاتل، ومن هم الذين آووه، وإذا به كذلك، يجد نفسه في مكان آخر، فقد اختفى ذلك العرض ولم يعد موجوداً فيه, كما اختفى المخرج والمنتج والأبطال الذين كانوا في العرض وخارج العرض وفي جميع الأماكن شرقاً وغرباً.
أين اختفوا جميعاً؟
مازال يحدوني أمل ما، أن ألتقي بهم مرة أخرى، ربما تكون فرصة هذا اللقاء قريبة وقريبة جداً, مسح عن وجنتيه الدموع، شعر لوهلة أنه كان في وادٍ آخر من الأرض وكأن العالم صار من خلفه، وأخذ يلتفت هنا وهناك كأن أحداً ما يسير خلفه، فقد تملكه إحساس غريب بالخوف، وإذا به يصاب فجأة بالرجفة، وهو كذلك وإذا به كأنه ينخسف مع الأرض التي تحته في هذه البيداء الحارقة.
لم يخطر بباله أنه الآن بحاجة إلى الشجاعة القاهرة أكثر من أي وقت, نعم شجاعة الموقف وشجاعة الرد المناسب، الشجاعة لمواجهة من آذاني وجعل مني أضحوكة وشريطاً بائساً من الصور العبثية التي تعرض خيبة الأمل والخيانة التي وصلنا إليها، نعم إنها الحقيقة المرة التي كثيراً ما كنت أتحاشها أو أبحث عنها في الأساطير...!!
أهو ذلك الإنسان الجبان، أم هو اليأس، أو هو الخوف نفسه؟
ولكن لابد أن أبدأ، فطالما كنت أتعذر بالأسباب حينها، ولا أصل إلى الهدف مهما كان قريباً ومتاحاً لي، ما عليّ إلا أن أستجمع قواي الخائرة لأبدأ من جديد.
وإذا به ينظر إلى هنالك، فيرى غمامة كبيرة قادمة نحوه مسرعة تسقط من السماء، وكأنها محملة بالرماد والفحم الأسود ومملوءة بحجارة من السجيل أو كما يدعى حجر الأردواز، وكأن الأمر قد حان؟؟!!!
و فيما هو كذلك، فإذا بالأرض تحت قدميه قد بدأت تفور وتتقافز فيها الجبال والأنهار والبحار وتهتز لها، وتلفظ كل ما فوقها وتحتها، وكأنها تحاول أن تتخلص من أحمالها وترمي بها من جديد..!!
يا رب ماذا يحدث.. أهو الطوفان الثاني، يا إلهي...!!
لقد تملكه الرعب حين شاهد على نحو مفاجئ السيول تنهمر وتدفع بالأبنية والحقول والأشجار بعيداً نحو الجنوب، وكأنها تغسلها من الوحل والفساد والخيانة وكل ما ألمّ بها، كل تلك المشاهد أضحت تتكرر أمامه، وهو يتذكر في ذلك الشريط كيف بدت له الأرض التي تحته وقد أضحت كقطع من الإسفنج المتراخي والمتشقق بالمياه.
وهو كذلك خائف وجل، بدأ يحاول العوم والسباحة والطفو فوق سطح الماء، وإذا بكثير من السفن والبواخر الغارقة تلاحقه كأنها تريد أن تلتصق به، والكل يصيح النجدة، لابد أنهم جميعاً غارقون....!!!
وفجأة وإذا به يرى جوقة المحكمة أنفسهم, نعم إنهم أنفسهم، كانوا على متن حوامة أو فرقاطة أو مركبة فضائية، لا يعرف ما تكون، اقتربوا منه، وقالوا له:
هيا اصعد بأمان...!!

ولا تنظر إلى أسفل قدميك، اصعد دون خوف أو وجل..
إنك الآن في أمان أكثر من أي وقت مضى، لا تخف..!!
حاول أن ينظر إلى الأسفل، فإذا بأحدهم يضع يديه ليصمّ عينيه بنظارة بدت وكأنها تبث فلم أو هكذا خيل له، كان يشاهد بثاً مباشراً لما يحدث, يشاهد هول الكارثة، وكيف حلت بهم.
وإذا به يخيل له قاتل الكلب..!! وكأنه يغرق في اليم الهائج، نعم إنه كذلك..!!
وإذا بأجهزة التصوير الملحقة بهذه الطوافة أياً كان اسمها بدأت تعرض ما يدور من مآسٍ وموت، وكأنه به يشاهد خارطة الأرض كاملة أمامه, سمع أحدهم يقول:
نحن الآن فوق أراضي الجزيرة وأراضي الخليج، وإذا بها تبدو وكأنها أصبحت بحراً، بدت وكأنها بلورة ناصعة البياض في زجاجة يخرج النور من أطرافها، وحولها مياه الطوفان، وفيما هو كذلك شاهد تلك التلال الخضراء اليانعة المغطاة بأشجار النخيل الباسقات في الحافة الجنوبية الغربية، وكأنها بمأمن عما يجري من هدير وطوفان وهيجان للمياه، ربما كانت هي تلك الأصقاع التي خرج منها الأجداد، واكتوت بنيران الكافرين سنوات وسنوات، نعم يبدو أنها هي كذلك. بينما كانت تلك الصور تتراصف أمامه كأنها حلم لا ينتهي وإذا بقارب كبير ينطلق من تلك الأرض البلورية ناصعة البياض، ينطلق مسرعاً باتجاه الغرب يعدو أسرع من الطوفان الذي يسير خلفه متجاوزاً آلاف الأميال من الأراضي ماراً بذلك النهر العظيم المنطلق بغزارة لم أعهدها من قبل والصاعد من الأسفل إلى أعلى، وهو النهر نفسه الذي كان «المحبوس مياهه» بسبب السد المشؤوم والمدعوم من قوى الشر، والذي أضحى أثراً بعد عين، وإذا بالقارب يسير منطلقاً باتجاه الغرب والشمال الغربي، أراه كما هو بثاً مباشراً من تلك الشاشة العظيمة, أنظر إليه وهو يجوب البحار والخلجان والمحيطات، ولكن أين ستكون وجهته النهائية، وهل ستكون له مرساة يقف عندها؟
ربما مناطق الغرب, نعم إنها غرب المتوسط.......!!
نعم فكما تراءى لي ولغيري، فقد عادت رؤوس الخيول المقطوعة التي تبدو باكية، إلى كامل قواها تقطع المسافات كأنها تحمل غمامة تحمي بها القارب العظيم، وتتجه كالموكب العظيم نحو الغرب، تسير وهي تحمل علماً، لم أعرف علم من تحمل، ومن هو الربان والقائد الذي بأمره يأتمرون...؟
حينها بدأت أنظر إليهم كما ينظر الآخرون، وقد توقف الطوفان، وأي طوفان, إنه يمثل الآن حداً ما بين حضارتين، والمملكة القديمة عادت، وقد تحقق الأمر لها......
نحن الآن على حدودهم الشرقية، إنه ينظر إليهم، كأنهم وضعوا أيديهم على رؤوسهم. يبدون مستسلمين للقدر الذي باغتهم، نعم هم هكذا مستسلمون، كما استسلم أقرانهم من الجهة الغربية حين تحرك الآخرون في الخط نفسه والوقت ذاته, بدا لي ولهم أنهم يرتدون لباساً أبيض، ويسقطون مغشياً عليهم، وينحنون برؤوسهم، أم أنهم يسجدون...!!
وخلفهم كانت كل تلك البهرجة من الأبنية والأبراج والقلاع التي شيدت بدماء الآخرين، وكأنها تتساقط كما يتساقط البرد، حالها كحال الحوامات والصواريخ والقباب الحديدية, التي أصابها الصمم والشلل وأضحت جليداً، بدت وكأنها تماثيل واجفة لا تحرك ساكناً، وأضحت للناس أطلالاً، وصارت أثراً بعد عين، كما السدود اللئيمة.......!!!
إنها العودة الحتمية لما اختبرتنا الآلهة به، إنه نذير شؤم عليهم، لقد عادت الأمور إلى نصابها.....
ما الذي يحدث؟؟ حين أردت السؤال..

ضحك أحدهم، وقال: يا عبد الله ألا تعرفني إنني صابر، ألا تعرفهما إنهما ابنك عامر وابنك محمد, وأما أولئك الذين يجلسون هناك في ذلك القارب العتيد, فإنهم حراس الأرض الجدد، ألا تعرفهم, إنهم الأربعون ممن كنت تشابههم، أو كنت شبيهاً لهم، هم القادمون نحو المجد نحو الحرية، لقد انتهت لعبة العروش وقد سقطت الآن..!!

والآن فقط، سنجعلك تتعرف عليهم، نعم ستتعرف عليهم...

إنك الآن أضحيت جندياً من جنودهم المخلصين.......

حتى حين...

تمت والحمد لله

المؤلف

بغداد مارت 2020

انتظرونا في الجزء الثاني

بعونه تعالى